رواية

الكيلومتر ١١٤

تشيواوا وصحراء ما بيي - تشرين الثاني ١٩٧٤

من تأليف الكاتب والروائي
علاء فاضل الأسدي

٢٠٢٦

مقدمة

ليست كل الطرق تقود إلى وجهة نعرفها، وليست كل الوجوه التي تصادفنا في رحلات الحياة تستحق ثقتنا. فبعض الطرق تبدأ بوعد النجاة، ثم تقودنا إلى متاهات لم نكن نعرف بوجودها، وبعض الأشخاص يدخلون حياتنا في اللحظة التي نكون فيها بأمسّ الحاجة إليهم، دون أن ندرك أن وراء أبواب الطمأنينة قد تختبئ أسرار أكثر خطورة من الخوف نفسه.

في حياة الإنسان لحظات فاصلة، لا تُقاس بطول الزمن الذي تستغرقه، بل بما تتركه في داخله من أثر. لحظات يصبح فيها القرار مصيرًا، والثقة مغامرة، والصمت اعترافًا مؤجلاً، والحقيقة عبئًا لا يستطيع المرء التخلص منه مهما حاول الهرب.

في عالم تحكمه المصالح، وتتقاطع فيه الطرق بين الطمع والخيانة والوفاء، لا تكون الحقيقة دائمًا كما تبدو، ولا يكون الخطر بالضرورة في الجهة التي نتوقعها. فالأقنعة قد تخفي وجوهًا مألوفة، والنجاة قد تأتي بثمن باهظ، والقلوب التي تبدو مطمئنة قد تحمل في أعماقها حروبًا لا يراها أحد.

اخترت لهذه الرواية عنوان «الكيلومتر ١١٤»؛ لأن بعض الأماكن تتجاوز حدود الجغرافيا لتصبح علامات في الذاكرة، ونقاطًا فاصلة بين حياة مضت وأخرى لم تبدأ بعد. هناك، حيث تمتد الطرق بعيدًا عن العيون، وتصبح المسافات أكثر اتساعًا من القدرة على العودة، تتشابك المصائر، وتنكشف طبائع البشر حين تسقط عنهم ضمانات الأمان.

علاء فاضل الأسدي

الفصل الأول: محطة السراب والمطر التشريني

أطراف تشيواوا — محطة الحافلات القديمة | ٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٢١:٢٠ ليلاً

«بعض الأيادي تمتد إليك في المطر لا لتنقذك من الغرق، بل لتقودك إلى بحرٍ أعمق لا شاطئ له؛ فالظلام لا يخلق الوحوش، بل يمنحها الجرأة لتخلع أقنعتها.»

حين تصمت تشيواوا في ليالي تشرين، لا يموت الضجيج فيها، بل ينسحب إلى أعماق الصدور ليصير هواجس ثقيلة، ولا يبقى حياً على أرصفتها العتيقة سوى رنين الرذاذ الخريفي وهو يقرع حجارة البازلت كأصابع قدرٍ لا يملّ الانتظار، وصدى الرياح الباردة الهابطة من سفوح «سييرا مادري»؛ تلك الجبال الصامتة التي تشهد كل عامٍ انكسار وعودٍ لم تُولد، وهروب أرواحٍ ضاقت بها جدران البيوت التي تُغلق على القهر كما تُغلق التوابيت على الموتى.

كانت المدينة في تلك الليلة من الثاني من تشرين الثاني غارقةً في طقوس «عيد الموتى»؛ حيث تشتعل الشموع الصفراء فوق القبور البعيدة كعيونٍ ساهرةٍ تحرس الذاكرة، وتفوح رائحة زهور القطيفة المبللة من النوافذ المواربة، وكأن الأحياء قد عقدوا هدنةً صامتةً مع الأشباح، فاستعاروا وجوه الجماجم ليحتفلوا بالفناء، بينما تركوا الشوارع الخلفية عاريةً للوحشة والوحل والخيانة.

عند زاوية المحطة المهجورة على الطرف الجنوبي للمدينة، كان الضوء الأصفر الوحيد يتأرجح فوق لافتةٍ معدنيةٍ صدئة، يئنّ عمودها الحديدي كلما صفعته الريح كشيخٍ يشكو ثقل السنين، ويلقي بظلالٍ مترددةٍ على كتفي فتاةٍ في الخامسة والعشرين تقف متجمدةً في معطفٍ عاجيٍّ خفيف، كأنها نوتةٌ موسيقيةٌ شاردةٌ سقطت سهواً في لحنٍ جنائزي، أو عصفورٌ بلّله الغيم قبل أن يتعلم فلسفة الطيران.

كانت إيزابيل روبلس قد وصلت متأخرةً بعشر دقائق فقط؛ عشر دقائق تبدو في حسابات الزمن عابرة، لكنها في ميزان المصائر كانت هوةً سحيقةً ابتلعت حافلة توريون الليلية في ضباب الطريق، وتركتها وحيدةً بلا رفيق، وبلا مأوى، وبلا شجاعةٍ تكفي للعودة إلى البيت الذي فرت منه قبل ساعة. لم تكن تحمل حقيبةً ثقيلة، بل لُفافةً قماشيةً صغيرة لا تتسع لأكثر من شالٍ صوفيٍّ لوالدتها الراحلة، ومنديلٍ مطرزٍ يرتجف بين أصابعها الباردة، وعلبةٍ

صفيحيةٍ صغيرة خبأت فيها بضع أوراقٍ نقديةٍ متآكلة وسند ملكيةٍ قديم لأرضٍ بورٍ لم يبقَ لها من إرث أبيها سواها، وثيقةٌ هشة تظنها مفتاح الحرية، ولا تدري أن الورق في بلاد الذئاب ليس سوى دعوةٍ صريحةٍ للافتراس.

لم يكن هروب إيزابيل نزوةً عابرة، بل كان انتزاعاً لروحها من بين فكي صفقةٍ وجوديةٍ قذرة أُبرمت في غرفة الجلوس المعتمة قبل غروب الشمس بساعتين، حيث يتحول الدم في عروق الفقراء إلى عملةٍ رخيصةٍ تُسدد بها خطايا الآباء والأعمام. هناك، وسط سحب الدخان الأزرق ورائحة «الميسكال» الرخيص، جلس عمها ماتيو مطأطئ الرأس أمام دون سيفيرو ميندیز، الرجل الخمسيني الذي يملك نصف مزارع القطن في ضواحي تشيواوا، والنصف الآخر من ذمم رجال الشرطة والقضاة، والذي يؤمن بأن كل شيءٍ في هذا العالم يُشترى، حتى البراءة إذا نضجت في حديقة الحاجة.
تذكرت إيزابيل كيف استرقت السمع من خلف الستارة المخملية البالية، وكيف تجمد الدم في عروقها وهي تسمع صوت سيفيرو الأجش وهو يرمي بصكوك ديون عمها فوق الطاولة الخشبية قائلاً ببرودٍ يشبه نصل الفولاذ: «أوراقك لا تساوي ثمن الرصاصة التي ستستقر في رأسك يا ماتيو، فالموتى لا يسددون الديون. لكن ابنة أخيك تملك وجهاً يغسل تعب السنين، وصمتاً

يليق بامرأةٍ ستتعلم الطاعة. غداً عند الفجر، يباركنا الكاهن في الكنيسة القديمة، وتُمحى خطاياك إلى الأبد».

لم يعترض العم، ولم يرتجف له جفن وهو يقايض لحم أخيه الراحل ببضع سنواتٍ إضافيةٍ على موائد القمار؛ ففي فلسفة المهزومين، تصبح التضحية بالآخرين أسهل من مواجهة الهاوية. وحين انشغل الرجال باحتساء نخب الصفقة، تسللت إيزابيل من الباب الخلفي للمطبخ، حافية القدمين حتى بلغت الزقاق الموحل، مرتديةً معطف والدتها العاجي فوق فستانها البسيط، تركض بين مواكب المحتفلين بعيد الموتى الذين غطوا وجوههم بأقنعة الجصّ البيضاء؛ كانت مفارقةً مرةً أن يتنكر الأحياء في هيئة الموتى احتفالاً بالحياة، بينما تركض هي بوجهها العاري هرباً من قبرٍ حُفر لها باسم الزواج.

والآن، تحت سقف الصفيح المثقوب في محطة الحافلات القديمة، أدركت إيزابيل الحقيقة الأولى للطرق الطويلة: أن الهروب من الجحيم لا يعني بالضرورة الوصول إلى النجاة، وأن الليل لا يمنح الأمان لمن لا يملك ثمنه.

من خلف شباك التذاكر الحديدي الصدئ، كانت هناك عينٌ واحدةٌ تراقب ارتجاف الفتاة بصمتٍ يشبه حكمة التماثيل القديمة. كان دون أنسيلمو، الحارس الليلي العجوز الذي فقد عينه اليسرى في شبابه خلال إحدى مناوشات الحدود، يجلس على كرسيه الخشبي المتهالك، يدثر ركبتيه ببطانيةٍ

عسكريةٍ مثقوبة ويحتسي رشفاتٍ بطيئة من زجاجة تكيلا رخيصة ليطرد رطوبة العظام وذكريات الزمن الذي لم ينصفه.

أصدر العجوز سعلةً جافةً قطعت سكون المكان كغصنٍ ينكسر في غابةٍ نائية، فانتفضت إيزابيل بذعرٍ والتفتت نحوه، قابضةً على لفافتها القماشية بكلتا يديها كما يقبض الغريق على لوح خشب. أطل أنسيلمو برأسه من الفتحة الدائرية للشباك، وحدّق بعينه الوحيدة في معطفها العاجي الفاخر الذي يشي بأصلٍ لم يُخلق لأرصفة التشرد، ثم هبط بنظره إلى حذائها الملطخ بالوحل، فقرأ قصة الهروب كاملةً دون أن ينطق بحرف.

تمتم العجوز بصوتٍ مبحوحٍ يشبه احتكاك الحصى في مجرى نهرٍ جاف:

«حافلة توريون لا تنتظر المتأخرين يا بنيتي، وسائقها لا يلتفت خلفه حتى لو رأى قديسةً تلوّح له في المطر؛ فالطريق إلى الجنوب يعلّم الرجال أن الرحمة ثقلٌ يعيق العجلات. ما الذي أتى بفتاةٍ مثلكِ إلى هذا الجحر في ليلة الأرواح؟»

اقتربت إيزابيل خطوتين بحذر، وصوتها يخرج مرتعشاً بالكاد يُسمع فوق هدير المطر:

«أرجوك يا عم... هل هناك أي حافلةٍ أخرى تمر من هنا الليلة؟ أو شاحنة بضائع تتجه جنوباً نحو دورانغو أو توريون؟»

هز أنسيلمو رأسه بأسىً عميق، وأشعل لفافة تبغٍ رديئة أضاءت تجاعيد وجهه الغائرة للحظة، كأنها تكشف خريطةً من الهزائم القديمة:

«في هذه الساعة، لا يقطع طريق صحراء مابيمي إلا المهربون، أو الهاربون من العدالة، أو الذئاب التي تبحث عن طريدةٍ ضلّت القطيع. الصحراء في تشرين مرآةٌ قاسية يا ابنتي؛ لا تسألكِ من أنتِ، بل تسألكِ عمّا أنتِ مستعدةٌ لخسارته. عودي إلى بيتكِ مهما كان غضب أهلكِ؛ فوحشة البيوت أهون ألف مرة من وحشة الطريق الصحراوي حين يبتلع الظلام أسماء العابرين.»

أطرقت إيزابيل برأسها ودمعةٌ ساخنةٌ تنزلق على وجنتها الباردة؛ كيف تشرح لعجوزٍ يخشى المجهول أن البيت الذي يدعوها للعودة إليه هو ذاته فم الوحش الذي تفرّ منه؟

قبل أن ينطق العجوز بكلمةٍ أخرى، شقّ الظلام عند نهاية الشارع شعاعان أبيضان ساطعان، تبعهما أزيز محركٍ يقترب بسرعةٍ متباطئة، وإطاراتٌ تدهس برك المياه بعنفٍ متعجرف. تجمّدت إيزابيل في مكانها حين لمحت الوميض الأزرق والأحمر الخافت فوق سقف السيارة القادمة؛ كانت دورية الشرطة المحلية، حيث يرتدي القانون زياً رسمياً ليخفي به عبوديته للمال.

همس أنسيلمو من خلف الشباك محذراً بنبرةٍ تعرف طبائع البشر:

«اختبئي خلف صناديق الشحن الخشبية عند الرصيف الثالث... إن كنتِ هاربةً من أحد أصحاب النفوذ في هذه المدينة، فإن رجال الشرطة هنا هم أول من يبيعكِ مقابل حفنة بيزو، ثم يغسلون أيديهم بماء المطر.»

اندفعت إيزابيل بخفةٍ نحو الظل الكثيف خلف الصناديق المكدسة قرب رصيف التحميل، وكتمت أنفاسها بيدها المرتجفة، تشعر أن جدران الظلام تضيق حولها. توقفت سيارة الدورية بمحاذاة الرصيف، وترجّل منها الرقيب موراليس؛ رجلٌ بدينٌ ذو شاربٍ كثيف ومعطفٍ مطريٍّ أسود يلمع تحت ضوء المصباح كجلد حيوانٍ برمائي. تقدم بخطواتٍ ثقيلة نحو شباك التذاكر، وضرب الزجاج بمقبض مصباحه اليدوي بفظاظة من يستمد قوته من سادة الظل.

«أيها العجوز الأعمى! هل رأيت فتاةً في الخامسة والعشرين تمر من هنا؟ شاحبة الوجه، ترتدي معطفاً أبيض أو عاجياً، وتحمل صرةً صغيرة؟»

تظاهر أنسيلمو بالنعاس، ومسح فمه بكمّ سترته البالية قبل أن يجيب ببلادةٍ متقنةٍ لا يتقنها إلا من خبر السجون والمخافر:

«لم يمر من هنا سوى الكلاب الضالة والريح يا حضرة الرقيب. آخر حافلة غادرت منذ ربع ساعة، ولم يركبها سوى عجوزين وبائع فخار، أما الأحياء فقد ذهبوا ليحتفلوا مع موتاهم.»

أخرج موراليس ورقةً نقديةً مطوية ولوّح بها أمام أنف العجوز كطُعمٍ رخيص:

«دون سيفيرو يدفع بسخاء لمن يعيد له خطيبته الشاردة قبل الفجر. إن لمحتَ ظلاً يتحرك هنا، أطلق صافرتك فوراً، وسيكون نصيبك ما يكفيك لشرب التكيلا عاماً كاملاً دون أن تتسول.»

من مخبئها خلف الصناديق، شعرت إيزابيل بأن قلبها يكاد يمزق ضلوعها؛ لم يعد الأمر مجرد هروبٍ عائلي، لقد أصبحت مطاردةً رسمياً في كل شبرٍ من تشيواوا، وتحوّل حراس القانون إلى كلاب صيدٍ في إقطاعية سيفيرو.

استدار الرقيب موراليس ليتفقد الأرصفة الخلفية للمحطة، ووجه شعاع مصباحه القوي نحو رصيف التحميل حيث تختبئ إيزابيل، فاخترق الضوء العتمة كسيفٍ يبحث عن عنقٍ عارٍ. أغمضت الفتاة عينيها بشدة، مستسلمةً لقدَرها المحتوم، بينما أخذت خطوات الشرطي الثقيلة تقترب شيئاً فشيئاً على الأسفلت المبتل، تعلن نهاية حلمٍ قصيرٍ بالحرية.

وفي تلك اللحظة الفاصلة بين اليأس والوقوع في الأسر، انزلقت من المنعطف الجنوبي سيارة «فورد غالاكسي» سوداء موديل ١٩٦٦، تتقدم بهدوءٍ ملكيٍّ واثق، كفهدٍ أسود يشم رائحة الخوف في الهواء ويعرف متى ينقض دونَ أن يُحدث ضجيجاً. توقفت السيارة على بُعد أمتارٍ قليلة من سيارة الدورية، وانفتح باب السائق ليترجل منه رجلٌ في الأربعين، طويل القامة،

يرتدي معطفاً رمادياً أنيقاً فوق قميصٍ داكن، ويحمل مظلةً سوداء واسعة، كأنه خارجٌ لتوه من مسرحيةٍ أرستقراطية لا من ليلٍ موحل.

نادى الرجل بصوتٍ عميقٍ هادئ، يحمل نبرةً من الود الممزوج بالسلطة الخفية التي تروض الرجال دون صراخ:

«ليلةٌ قاسية على رجال القانون يا رقيب موراليس... أرى أنك تبحث عن إبرةٍ في كومة مطر، بينما المدينة كلها غارقةٌ في النبيذ والشموع.»

توقف موراليس عن التقدم نحو الصناديق، والتفت متفاجئاً، ثم ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ متملقة حين تعرّف على ملامح القادم تحت ضوء المصباح:

«سيد رافائيل! لم أكن أعلم أنك لا تزال في تشيواوا. ظننتك غادرت إلى الجنوب منذ الأمس.»

اقترب رافائيل بخطواتٍ متزنة، وأخرج علبة سجائر فاخرة، قدّم واحدةً للرقيب وأشعلها له بولاعةٍ فضيةٍ أضاءت وجهيهما للحظة، بينما انزلقت بين أصابعه ورقةٌ نقديةٌ من فئة المئة بيزو لتستقر بسلاسةٍ في جيب معطف الشرطي؛ حركةٌ بارعة تشبه مصافحة الأفاعي في العتمة. مال رافائيل برأسه وهمس بنبرةٍ واثقةٍ تقطر مكراً:

«لقد مررتُ لتوي بمحطة القطارات الشمالية... رأيت فتاةً بمعطفٍ عاجيٍّ تركض نحو عربات البضائع هناك منذ خمس دقائق. لو أسرعتَ الآن، قد تدركها قبل أن يتحرك قطار الشحن، وتنال مكافأتك كاملةً دون شريك.»

لمعت عينا موراليس بالجشع، فضرب كعبيه بتحيةٍ عسكريةٍ سريعة وقفز إلى سيارته، لتنطلق الدورية بأقصى سرعتها نحو الشمال، تاركةً المحطة غارقةً في الصمت من جديد. راقبت إيزابيل المشهد من خلف الصناديق بذهولٍ يشبه المعجزة؛ لقد ظنت أن هذا الغريب الأنيق قد انتشلها من فم الأسد، غافلةً عن أن الصيادين المحترفين لا يتركون طريدتهم الثمينة تقع في شباك صيادٍ آخر، بل يبعدون الكلاب ليظفروا بالصيد وحدهم.

بعد أن تلاشى هدير سيارة الشرطة في البعيد، لم يغادر رافائيل المكان، بل عاد ببطءٍ متأنٍّ إلى سيارته الفورد غالاكسي، وأدارها لتقف بمحاذاة الرصيف تماماً، مقابل الزاوية التي كانت إيزابيل قد خرجت إليها لتوها وهي تلتقط أنفاسها المتلاحقة، كظبيةٍ نجت من سهمٍ طائش لتقع في دائرة القنّاص.

انخفض زجاج باب الراكب ببطء، ليكشف عن ضوءٍ عنبريٍّ دافئ يغمر وجه سائقٍ في الأربعين، أنيق الملامح، تتدلى خصلة شعرٍ داكنة على جبينه، وعلى شفتيه ابتسامةٌ هادئةٌ تجيد التظاهر باللطف؛ ابتسامةٌ مصقولةٌ بعناية كمرآةٍ تعكس للخائفين ما يتمنون رؤيته لا ما يختبئ خلفها.

رافائيل: «المطر في تشيواوا هذا المساء لا يرحم العيون الجميلة يا آنسة. آخر حافلة غادرت قبل قليل... وأخشى أن الوقوف هنا وحيدةً في عيد الموتى قد يسرق دفء قلبك قبل أن يسرق دفء يديك.»

تراجعت إيزابيل نصف خطوةٍ بخجلٍ فطري، وأخفت يديها داخل جيبي معطفها، ولم تجرؤ على النظر مباشرةً في عينيه، لكنها لم تستطع إخفاء امتنانها لما رأت قبل لحظات؛ فالبراءة تميل دائماً إلى تصديق المنقذين لأنها تعجز عن تصور أن النجاة قد تكون فخاً.

إيزابيل: «أشكرك يا سيدي... وأشكرك على ما فعلته قبل قليل. أنا فقط أنتظر إن كانت هناك أي وسيلةٍ تصل إلى توريون قبل الصباح.»

أطال رافائيل النظر إلى وجنتيها المحمرتين من البرد، وإلى تلك البراءة الصافية التي تنضح من تلعثم صوتها، وإلى اللفافة القماشية التي تحتضنها كأنها كنزها الوحيد. في داخله، دارت حسابات رجلٍ اعتاد أن يزن البشر بميزان الربح والخسارة؛ أدرك على الفور أن القدر وضع بين يديه الليلة فتاةً لم تعرف خبث الطرق الطويلة ولا ألاعيب الرجال، وأن هروبها من رجلٍ نافذٍ مثل سيفيرو يجعلها بضاعةً نادرةً تساوي وزنها ذهباً في أسواق الجنوب أو في مفاوضات الابتزاز. أطبق على المقود براحة يده، وأمال رأسه بنبرةٍ حانيةٍ مدروسةٍ تشبه عزفاً منفرداً على وتر الخوف:

رافائيل: «أنا متجهٌ إلى توريون في هذه الساعة بالذات يا آنسة. الطريق طويل وموحش على فتاةٍ وحيدة، ولكن إن قبلتِ صحبة رجلٍ يحفظ صمت الصحراء، فسأوصلكِ إلى باب أهلكِ سالمةً قبل أن يفتح الفجر عينيه.»

ترددت إيزابيل طويلاً، تتجاذبها غريزة الحذر الفطرية وواقعها المرير؛ فحين يُغلق خلفك باب الجحيم ويُفتح أمامك باب المجهول، يصبح التردد رفاهيةً لا يملكها الهاربون. نظرت خلفها نحو الظلام الذي قد ينبثق منه رجال سيفيرو في أي ثانية، ثم نظرت إلى وجه رافائيل الهادئ الذي لا يشي بأي عجلةٍ أو طمع؛ بل بدا كأنه رجلٌ نبيلٌ قادته الصدفة ليكون ملاكها الحارس في ليلةٍ خذلها فيها الدم والقانون معاً.

مدت يدها الصغيرة وفتحت الباب الثقيل، غافلةً عن النظرة الخاطفة التي لمعت في عيني السائق وهو يضغط زر الإغلاق المركزي ويدير مؤشر المدفأة؛ صوت القفل المعدني وهو يغلق لم يكن مجرد إجراءٍ عابر، بل كان إعلاناً صامتاً بإسدال الستار على حريتها، كمن أغلق للتو قفصاً ذهبياً على يمامةٍ شاردة.

جلست إيزابيل على المقعد الجلدي الوثير، فضمّت لفافتها القماشية إلى صدرها. كانت المقصورة تفوح برائحة الجلد الطبيعي، والتبغ الفاخر، وعطرٍ

رجاليٍّ دافئ يبعث على طمأنينةٍ زائفةٍ تخدّر الحواس. التفت رافائيل نحوها بابتسامةٍ أبويةٍ خفيفة:

«اسمكِ؟»

ترددت للحظة، وكأن البوح بالاسم في الظلام يمنح الغريب سلطةً على الروح، ثم همست:

«إيزابيل... إيزابيل روبلس.»

أومأ برأسه وهو يعشّق ناقل الحركة بسلاسة:

«وأنا رافائيل. استريحي الآن يا إيزابيل، فالطريق أمامنا طويل، والصحراء في الليل تبتلع كل المخاوف.»

ومع انطلاق المحرك الثقيل بصوته الخافت على الأسفلت المبلل، التفتت إيزابيل من خلال الزجاج الخلفي لترى مصباح المحطة الأصفر يبتعد ويغرق في المطر، بينما أطلت عين دون أنسيلمو الوحيدة من خلف الشباك الصدئ تودّعها بنظرةٍ يملؤها الرثاء؛ نظرة شيخٍ يدرك أن الهروب من ذئبٍ تعرفه إلى ذئبٍ يتقن الكلام العذب ليس سوى تغييرٍ لشكل النهاية.

بعد عشرين دقيقة من القيادة الهادئة، وقبل أن تغادر الفورد غالاكسي آخر حدود تشيواوا لتدخل الطريق الصحراوي المفتوح نحو مابيمي، خفف رافائيل من سرعته وانعطف نحو محطة وقودٍ معزولة تحمل لافتة «بيميكس»

متهالكة يضيئها مصباح نيون أزرق يرتعش تحت المطر، كأنه جرحٌ ضوئيٌّ ينزف في صدر العتمة.

التفت إلى إيزابيل التي بدأت جفونها تثقل بفعل دفء المدفأة وإرهاق الهروب، وقال بنبرةٍ رقيقةٍ تقطر عناية:

«سأملأ الخزان وأحضر لكِ كوباً من القهوة الساخنة وقطعةً من خبز الموتى الطازج. لا تغادري السيارة، فالريح هنا باردة.»

ترجل رافائيل وأغلق الباب بإحكام، ثم سار نحو كشك الهاتف العمومي الزجاجي القريب من مكتب المحطة، بينما انشغل عامل المحطة النعسان بملء خزان الوقود. راقبته إيزابيل من خلف الزجاج المبلل بقطرات المطر؛ كانت القطرات تشوّه صورته وتعيد تشكيلها، فبدا لها في وقفته المستقيمة رجلاً محترماً يعتني بضيفته، فلم يخطر ببالها أن يده التي ترفع سماعة الهاتف كانت تبرم للتو صكّ بيعها في سوق النخاسة الخفي.

في داخل الكشك الزجاجي، أدار رافائيل قرص الهاتف بسرعة، وما إن جاءه الصوت الأجش من الطرف الآخر في توريون حتى انمحت عن وجهه كل ملامح اللطف، وحلت محلها قسوةٌ باردةٌ كفولاذ السكين:

«اسمعني جيداً يا إل بويتري... البضاعة التي في صندوق السيارة جاهزة، وسأكون عند مستودع الكيلومتر ١١٤ قبل الفجر بساعتين. لكن لديّ الليلة إضافةٌ لم تكن في الحساب؛ فتاةٌ في الخامسة والعشرين، من عائلةٍ معروفة في

تشيواوا، هاربة ولا أحد يعلم بمكانها. أريد أن يُخصم نصف دَيني القديم مقابلها، وتسلّمها لزبائنك في الشمال غداً.»
جاءت ضحكةٌ مكتومة تشبه فحيح الأفاعي من الطرف الآخر قبل أن يجيب:
«إن كانت كما تصفها يا رافائيل، فدينك ممسوحٌ بالكامل، ولك فوقه ألف بيزو نقداً. إياك أن تتركها تهرب، فالطيور النادرة غالية الثمن.»
أغلق رافائيل السماعة بهدوء، ومسح قطرات المطر عن معطفه، ثم أعاد ترتيب ملامحه وارتدى قناع الرجل النبيل قبل أن يتجه لشراء القهوة؛ ما أسهل أن يبدّل الإنسان جلده حين يكون الضمير قد مات منذ زمن!

عاد رافائيل إلى السيارة حاملاً كوبين ورقيين تتصاعد منهما أبخرة القهوة بالقرفة، وكيساً ورقياً دافئاً. ناول إيزابيل كوبها بلطفٍ فائق، فابتسمت له بامتنانٍ صادق أذاب ما تبقى في قلبها من ريبة؛ فالدفء البسيط في ليالي الخذلان يبدو للقلوب المتعبة كأنه حبٌّ أو خلاص.
«لم أكن أعلم أن في هذه الدنيا أناساً يمدون يد العون دون مقابل يا سيد رافائيل... لو لم تظهر في تلك اللحظة، لكان رجال سيفيرو قد أعادوني مقيدةً كالماشية.»

ارتشف رافائيل رشفةً بطيئة من قهوته وهو يدير المحرك ويعود إلى الطريق السريع المظلم، مستغلاً بوحها العفوي ليجمع كل خيطٍ يمكن أن يرفع من قيمتها في سوق الاستغلال:

«سيفيرو ميندیز؟ ذلك الرجل لا يرحم حتى أقرب الناس إليه. لا بد أن عمكِ وقع في دينٍ كبير لكي يضحي بفتاةٍ مثلكِ. هل لديكِ أقارب في توريون يحمونكِ منه؟»

هزت إيزابيل رأسها بأسىً وهي تضم لفافتها القماشية إلى صدرها كدرعٍ أخير:

«لا أحد... كانت أمي تذكر أن لنا قطعة أرضٍ صغيرة قرب الحدود، وخبأت لي سندها في هذا الشال قبل وفاتها، وكنت أنوي بيعها في توريون لأبدأ حياةً جديدة بعيداً عنهم.»

لمعت عينا رافائيل في مرآة الرؤية الخلفية ببريقٍ خفيّ كالبرق الذي يسبق العاصفة. لم تعد الفتاة مجرد غنيمةٍ جسديةٍ يبيعها لعصابة «إل بويتري» فحسب، بل أصبحت تحمل معها صكّ ملكيةٍ يمكن انتزاعه منها قبل تسليمها! مد يده وربت على كتفها بخفةٍ مدروسةٍ توحي بالحماية الأبوية، كجزارٍ يتحسس نعومة الصوف قبل أن يشحذ السكين:

«اطمئني يا إيزابيل... ما دمتِ في سيارتي، فلن يمسّكِ مكروه.»

في تلك الأثناء، وعلى بُعد ثلاثين كيلومتراً خلفهما في محطة الحافلات القديمة بتشيواوا، اخترقت السكون صرخة مكابح شاحنة «بيك أب» حمراء ملطخة بالوحل، توقفت بعنفٍ أمام شباك التذاكر كوحشٍ جريح. قفز منها رجلان مسلحان ببنادق صيدٍ قصيرة، يرتديان قبعات رعاة البقر المبللة، واقتحما كشك الحراسة ليجرّاً دون أنسيلمو العجوز من ياقة سترته البالية.

صرخ أكبرهما وهو يضغط فوهة البندقية الباردة تحت ذقن العجوز:

«الرقيب موراليس لم يجدها في محطة القطار، وآثار حذاءٍ نسائيٍّ لا تزال طريةً في الطين هنا! أين ذهبت الفتاة أيها العجوز الأعور؟»

ارتجف أنسيلمو وعينه الوحيدة تدمع من الألم والمهانة؛ فالشجاعة في الشيخوخة عملةٌ نادرة حين يوضع الموت على الحنجرة:

«أخذها رجل... رجلٌ أنيق في سيارة فورد غالاكسي سوداء... اتجها جنوباً نحو طريق صحراء مابيمي منذ أقل من نصف ساعة!»

دفع الرجل العجوز أرضاً بقسوة، وعاد يركض نحو الشاحنة وهو يصيح في رفيقه:

«أبلغ دون سيفيرو فوراً! الفورد غالاكسي السوداء لا تخطئها العين في هذا المطر... لن يبلغا حدود دورانغو أحياء!»

وفي قلب الظلام الدامس على الطريق الصحراوي، حيث بدأ المطر يتحول إلى عاصفةٍ رعديةٍ عنيفة تضرب زجاج السيارة كالحصى، انحرف رافائيل

فجأةً عن الطريق المعبد نحو مسارٍ ترابيٍّ ضيق يتوغل في قلب صحراء مابيمي الموحشة، تلك الأرض التي تُسمى «منطقة الصمت» حيث تتعطل البوصلات وتضيع الجهات. اعتدلت إيزابيل في مقعدها بقلقٍ مفاجئ، محدقةً في الصبار العملاق الذي يلوح كالأشباح المصلوبة على الجانبين، وسألت بصوتٍ خافتٍ بدأ يلامس حافة الشك:

«سيد رافائيل... لماذا تركنا الطريق الرئيسي؟ أليس هذا الطريق يؤدي إلى الصحراء؟»

ابتسم رافائيل في الظلام دون أن ينظر إليها، وأجاب بأول كذبةٍ كبرى في ليلتهما الطويلة، بصوتٍ ناعمٍ يغلف الهاوية بالحرير:

«الطريق الرئيسي مقطوعٌ بسبب انهيارٍ صخريٍّ عند الوادي يا إيزابيل... وهذا المسار المختصر سيوصلنا إلى برّ الأمان أسرع مما تتخيلين.»

الفصل الثاني: سمفونية الصوت الدافئ

طريق الصحراء الموازي — مشارف حدود دورانغو | ٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٢٢:٠٥ ليلاً

«ليست كل القيود تُصنع من الحديد البارد؛ فبعض السجّانين ينسجون أقفاصهم من خيوط الحرير الدافئة، حتى يظن الطائر أن القضبان التي تحيط بعنقه ليست سوى ذراعين تضمّانه من برد العالم.»

في النصف ساعة الأول من الطريق، لم ترفع إيزابيل نظرها عن ركبتيها المضمومتين. كانت تجلس عند حافة الباب قدر ما تستطيع، ملتصقةً بالزجاج البارد كأنها تحاول أن تُبقي بينها وبين هذا الرجل الغريب مسافةً تكفي لولادة شكٍّ أو نجاة. كانت تحاول في سرّها أن تقنع نفسها بأن القدر لا يمكن أن يكون قاسياً إلى حدّ أن ينقذها من ذئاب عمها ماتيو ليلقي بها في عرين ذئبٍ آخر، لكن قلبها ظل يقرع صدرها كطائرٍ محبوسٍ يرتطم بجدران قفصٍ لا يرى منافذه.

في الخارج، كانت صحراء شمال المكسيك تمتد كبحرٍ أسود بلا شواطئ، تتلاطم فيه ظلال أشجار الصبار العملاقة تحت سياط المطر التشريني. وفي الداخل، كان الصمت ثقيلاً كأنه كائنٌ ثالثٌ يجلس بينهما على المقعد

الجلدي، صمتٌ يفضح ارتجاف أصابعها وهي تشدّ على لفافتها القماشية، حيث يرقد سند الأرض البور كأنه آخر تعويذةٍ تحميها من الضياع.
كان رافائيل أذكى من أن يقتحم خجلها بالسؤال المباشر، وأكثر دهاءً من أن يكشف أنيابه قبل أن تستسلم الفريسة تماماً؛ فقد خبر طباع النساء اللواتي لم يعتدن المجالس، وعرف بفطرته الصيّادة أن البنت الخجولة لا تُصاد بالجرأة الفجة التي تُنفر الروح، بل بالحنان المصطنع الذي يتسلل عبر الأذن كالموسيقى الخافتة قبل أن يصل إلى القلب فيشلّ قدرته على المقاومة. ففي فلسفة الإغواء والافتراس، لا شيء أخطر على البراءة من رجلٍ يتقن الإصغاء إلى صمتها.

مدّ رافائيل يده الطويلة نحو لوحة القيادة وأدار مفتاح المذياع برفق، فانبثقت من السماعات القديمة نغمة غيتارٍ حزينة من ألبومات «لوس بانشوس»، تبعها صوتٌ رخيمٌ يغني عن ليلةٍ طويلةٍ تحت القمر، وعن قلوبٍ تائهةٍ تبحث عن مرفأٍ في العتمة. كانت ألحان «البوليرو» المكسيكية تتسلل إلى المقصورة الدافئة كأنها بخورٌ سحريٌّ يذيب الجليد العالق على الروح، ويمنح الوحشة وجهاً شاعرياً يغري بالاستسلام.
التفت إليها رافائيل بنظرةٍ عذبةٍ لا أثر فيها للعجلة أو الطمع، ثم أبطأ السرعة قليلاً ليمدّ يده اليمنى ويخلع سترته الصوفية الدافئة، ويضعها برفقٍ متناهٍ على

كتفيها المرتجفتين دون أن يلمس عنقها؛ كانت لمسةً محسوبةً بالمليمتر، تحمل من التهذيب ما يكفي لإسكات هواجسها، ومن الدفء ما يكفي لإيقاظ حنينها القديم إلى الأمان.

رافائيل: «أنتِ ترتجفين كأنكِ تحملين برد الشتاء كله فوق كتفيكِ الصغيرين. لن أسألكِ لماذا تبكين بصمت، ولا من الذي أطفأ الفرح في عينيكِ الليلة... لكني أقسم أن الحزن لا يليق بامرأةٍ لها صوتكِ الهادئ.»

احمرت وجنتا إيزابيل في الظلام المضاء بنور العدادات العنبري الخافت، وشعرت بدفء سترته يغمرها برائحة خشب الأرز والتبغ النظيف؛ رائحةٌ تختلف تماماً عن رائحة «الميسكال» الرخيص والعرق والخوف التي كانت تخنق جدران بيت عمها في تشيواوا. لم يقل لها أحدٌ منذ موت أمها كلمةً بهذا اللطف، ولم يعاملها رجلٌ يوماً كإنسانةٍ لها صوتٌ يستحق أن يُسمع. رفعت رموشها المبللة نحوه للحظةٍ قصيرة ثم خفضتها بارتباكٍ عذب:

إيزابيل: «لستُ معتادةً على هذا اللطف يا سيد... رافائيل. في بيتنا لا يتحدث الرجال إلا بالأوامر، ومن يغضب منهم يغلق الأبواب كلها في وجهك.»

ابتسم رافائيل في سره وهو يرى أولى قلاع الحذر تتهاوى أمام كلماته. أدرك أن هذه الفتاة لا تهرب من رجلٍ فحسب، بل تهرب من حياةٍ كاملةٍ من

القمع والنبذ، وأن الجائع إلى الكلمة الطيبة يبتلع السمّ إذا قُدّم له في كأسٍ من الحنان.

رافائيل: «وماذا لو أخبرتكِ أن الصحراء في هذه الليلة ملكٌ لنا وحدنا؟ لا أوامر هنا، ولا أبواب مغلقة، ولا أحد يملك أن يرفع صوته عليكِ ما دمتِ في سيارتي. تنفسي بهدوء يا إيزابيل... قولي لي اسمكِ بصوتٍ أعلى قليلاً، فإن اسماً بهذا الجمال حرامٌ أن يُقال همساً.»

تسارعت دقات قلبها وهي تسمع اسمها يخرج من شفتيه ممدوداً كأنها أغنية؛ لم يكن «إيزابيل» في فمه مجرد نداءٍ عابر كما كان في فم عمها ماتيو، بل بدا كأنه قصيدةٌ تُتلى للمرة الأولى. حاولت أن تهمس باسمها، نخرج صوتها أكثر ثباتاً هذه المرة، ممزوجاً بابتسامةٍ خجولةٍ لم تشعر بها شفتاها منذ شهور:

«إيزابيل...»

أومأ برأسه وكأنه يتذوق وقع الحروف في الهواء:

«هكذا أفضل. فالليل في صحراء مابيمي يحب الأسماء التي تُقال بوضوح، كي لا يخلط بين الأحياء وبين الأشباح التي تسكن التلال.»

لم تنتبه إيزابيل في تلك السذاجة العاطفية الدافئة إلى أن السيارة قد تجاوزت لتوها اللافتة الخشبية المضيئة لبلدةٍ صغيرةٍ شبه مهجورة على أطراف الحدود، وأن رافائيل كان يضبط مرآته الجانبية كل دقيقة، لا ليتفقد الطريق الخلفي

فحسب، بل ليطمئن أن فرائسه المعنوية بدأت تستسلم للسكينة التي ينسجها حولها خيطاً بعد خيط.

خلف تلك الابتسامة الأبوية الهادئة، كان عقل رافائيل يعمل ببرودة ساعةٍ سويسرية. لم تكن «الفورد غالاكسي» السوداء مجرد وسيلة نقلٍ بريئة؛ ففي صندوقها الخلفي، تحت طبقةٍ مزدوجةٍ من ألواح الخشب المبطنة بالمطاط، كانت ترقد أربعة صناديق من البنادق المهربة وسبائك الفضة الخام التي ينتظرها «إل بويتري» عند أطلال الكيلومتر ١١٤. كان رافائيل يعلم أن رجال الحدود والشرطة الفيدرالية يشددون الرقابة في ليلة عيد الموتى، ووجود فتاةٍ شابةٍ بملامح أرستقراطيةٍ هادئةٍ في المقعد الأمامي يمنحه أفضل غطاءٍ بشريٍّ يمكن أن يحلم به مهربٌ محترف؛ فمن يجرؤ على تفتيش سيارة رجلٍ أنيقٍ يصطحب زوجته أو شقيقته المريضة في ليلةٍ عاصفة؟
أما المكسب الثاني، فكان يرقد بين ذراعيها في تلك اللفافة القماشية البسيطة. سند ملكية أرضٍ قرب الحدود! لم يكن رافائيل يكتفي بفتات الصفقات؛ فإذا استطاع إقناعها بتسليمه ذلك السند قبل أن يبلغا الكيلومتر ١١٤، فسيحصل على الأرض لنفسه، ويقبض ثمن الفتاة نقداً من «إل بويتري»، ويمحو ديونه القديمة بضربةٍ واحدة.

وفيما كان يقلب هذه الحسابات القذرة في رأسه، قطع تأملاته وهجٌ أحمر خافت يلوح في الأفق البعيد وسط ستائر المطر الكثيفة. ضيّق رافائيل عينيه، وتبدلت ملامحه لجزءٍ من الثانية قبل أن يستعيد هدوءه؛ كانت هناك فوانيس زيتية حمراء تتأرجح على جانبي الطريق الترابي، وشاحنةٌ عسكريةٌ متوقفةٌ بعرض المسار.

همس رافائيل بصوتٍ خفيضٍ يحمل نبرة قلقٍ مدروسة:

«لا تتحركي يا إيزابيل، ولا تنظري إليهم مباشرة... يبدو أن هناك حاجزاً للشرطة الريفية أمامنا.»

انتفض جسد إيزابيل كأن صاعقةً أصابتها، وتجمدت الدماء في عروقها وهي تضم لفافتها القماشية إلى صدرها بقوة. عادت إليها صورة الرقيب مورواليس وصوت دون سيفيرو وهو يشتري ذمم رجال القانون بالمال. التفتت إلى رافائيل بعينين متسعتين يملؤهما الرعب:

«هل... هل أرسل سيفيرو رجاله إلى هنا؟ إذا وجدوني سيعيدونني إليه الليلة!»

مد رافائيل يده وأمسك بيدها المرتجفة للحظةٍ قصيرة؛ كانت قبضته دافئةً وصلبةً تبعث على الطمأنينة الفورية:

«اسمعيني جيداً... ما دمتِ معي فلن يلمسكِ مخلوق. ارفعي سترتي الصوفية فوق رأسكِ ووجهكِ، وأسندي رأسكِ إلى مسند المقعد كأنكِ نائمةٌ أو غارقةٌ في الحمى. اتركي الكلام لي.»

أطاعته إيزابيل دون تردد، وتدثرت بسترته الصوفية الثقيلة التي تفوح برائحة الأرز والتبغ، مغمضةً عينيها وهي تشعر أن هذا الغريب يضع نفسه درعاً بينها وبين الجحيم. تباطأت الفورد غالاكسي حتى توقفت تماماً أمام الفوانيس الحمراء، واقترب من نافذة السائق ضابطٌ ريفيٌّ ضخم الجثة، يقطر معطفه المطري ماءً، ويسلّط مصباحه اليدوي القوي مباشرةً على وجه رافائيل.

«أوراقك أيها السائق! إلى أين تتجه في هذه العاصفة عبر هذا الطريق المهجور؟»

أنزل رافائيل زجاج النافذة بابتسامةٍ متعبةٍ ومهذبة، وأخرج محفظته الجلدية، داسّاً ورقةً نقديةً من فئة المئتي بيزو بين أوراق السيارة:

«طابت ليلتك يا حضرة الملازم. الطريق الرئيسي مغلقٌ عند الوادي كما تعلم، وزوجتي المسكينة تشتعل حمىً منذ الظهيرة، وأحاول الوصول بها إلى عيادة الطبيب في توريون قبل الفجر.»

وجّه الضابط شعاع مصباحه نحو المقعد المجاور، حيث كانت إيزابيل متكورةً تحت السترة الصوفية الصوفية، لا يظهر منها سوى طرف معطفها العاجي

وخصلة شعرٍ داكنة تلتصق بجبينها الشاحب. ارتجف كتفاها بصدقٍ لم يكن بحاجةٍ إلى تمثيل، فبدا المشهد للضابط مقنعاً تماماً.

سحب الضابط الأوراق من يد رافائيل، والتقط الورقة النقدية بخفةٍ معتادةٍ أخفاها في راحة يده، ثم أعاد الوثائق وهو يلوح بمصباحه نحو الجنوب:

«امضِ بسرعة أيها الرجل... المطر يشتدّ عند وادي الصبار، وإذا علقت سيارتك في الوحل فلن تجد من ينقذك حتى الصباح.»

«شكراً لرحمتك يا حضرة الملازم.»

رفع رافائيل زجاج النافذة وعشّق ناقل الحركة، لتنطلق الفورد غالاكسي مجدداً في قلب العتمة، تاركةً فوانيس الحاجز الحمراء تتلاشى في المرآة الخلفية. لم ترفع إيزابيل السترة عن وجهها إلا بعد أن ابتعدوا مسافةً كافية، وحين فعلت، كانت أنفاسها لا تزال متلاحقة، وعيناها تلمعان بامتنانٍ عميقٍ يكاد يلامس الانبهار. لقد كذب من أجلها، ودفع من ماله ليحميها، ووضع حياته في خطرٍ أمام الشرطة! هكذا قرأ قلبها البريء المشهد، غافلاً عن أن رافائيل لم يدفع الرشوة ليحميها هي، بل ليحمي البنادق المخبأة في صندوق سيارته من أعين التفتيش.

ساد صمتٌ جديدٌ داخل السيارة، لكنه لم يعد صمت الخوف والريبة؛ بل صار صمتاً دافئاً مشبعاً بالألفة الكاذبة التي تولد عادةً بين شخصين نجوا لتوهما

من خطرٍ مشترك. خفّض رافائيل صوت المذياع قليلاً بينما كانت أغنيةٌ جديدة لـ «لوس بانشوس» تنساب كجدول ماءٍ في ليل الصحراء، وألقى نظرةً جانبيةً على إيزابيل التي عادت تتأمل الغيوم المنخفضة عبر الزجاج المبلل.

إيزابيل (تنظر عبر النافذة إلى الغيوم المنخفضة): «هل تظن أن الغيوم تنقشع قبل أن نبلغ حدود دورانغو؟ أم أن هذا الليل قرر ألا ينتهي أبداً؟»

رافائيل: «في السفر معكِ يا إيزابيل، أتمنى لو أن الليل يطول حتى الصيف القادم. قليلون من يصادفون في طريقهم وجه امرأةٍ يجعل الصمت نفسه يشعر بالخجل.»

ابتسمت على استحياء وأدارت وجهها نحو الزجاج المبلل لتخفي ارتعاشة شفتيها؛ فقد شعرت للمرة الأولى منذ أعوامٍ بأن أنوثتها لم تعد ذنباً يُعاقب عليه في بيت عمها، بل سرٌّ جميلٌ يتأمله رجلٌ غريبٌ بإعجابٍ هادئ. في تلك اللحظة، كان الحاجز النفسي الأخير بين الصياد والفريسة قد انهار تماماً؛ لم تعد إيزابيل ترى في رافائيل سائقاً عابراً، بل ملاذاً قدرياً أرسلته السماء في ليلة عيد الموتى ليعوّضها عن قسوة العالم.

أدرك رافائيل أن اللحظة قد نضجت لقطف الثمرة الأولى قبل الوصول إلى منطقة الصمت في مابيمي. خفف من سرعة السيارة قليلاً، وتظاهر بالتفكير العميق وهو يمسح قطرات البخار عن الزجاج الأمامي بظهر يده، ثم قال بنبرةٍ تجمع بين الحكمة والحرص الأخوي:

«إيزابيل... هناك أمرٌ يشغل بالي منذ أن أخبرتِني عن قطعة الأرض التي تركتها لكِ والدتكِ قرب الحدود. توريون مدينةٌ كبيرة، لكنها تعجّ بالمحامين الفاسدين وسماسرة الأراضي الذين يتربصون بالفتيات الوحيدات. حين يرون فتاةً في مثل سنكِ وبراءتكِ تحمل سند ملكيةٍ قديماً، سيقنعونكِ أن الورقة لا تساوي شيئاً ويشترونها منكِ بثمنٍ بخس.»

نظرت إليه إيزابيل بامتنان وتأثر، وضغطت بيدها على لفافتها القماشية:

«لم أفكر في هذا الأمر أبداً... كنت أظن أن مجرد امتلاك السند يكفي لبيعه والحصول على ثمنه.»

ابتسم رافائيل ابتسامةً حانيةً تفيض بالنبل الزائف:

«الحياة في المدن ليست بريئةً كقلبكِ يا صغيرة. حين نتوقف عند الاستراحة القادمة قبل توريون، دعيني أُلقي نظرةً على السند؛ فأنا أعرف محامياً شريفاً هناك، ويمكنني أن أرتب لكِ بيعها بسعرٍ عادلٍ يضمن لكِ مستقبلكِ دون أن يجرؤ أحدٌ على خداعك.»

أومأت إيزابيل برأسها موافقةً دون أدنى تردد، غير مدركةٍ أنها قد وقّعت لتوها على تسليم آخر ما تملك ليد الرجل الذي يستعد لبيعها هي نفسها في سوق الظلام.

في تلك الأثناء، وعلى بُعد خمسةٍ وعشرين كيلومتراً خلفهما، كانت شاحنة «البيك أب» الحمراء الملطخة بالوحل تقتحم باحة محطة الوقود المعزولة «بيميكس» كعاصفةٍ من الغضب. ترجّل منها «ريغو»، الذراع اليمنى لدون سيفيرو، رجلٌ ذو ندبةٍ غائرةٍ تشق حاجبه الأيسر، يتبعه رجلان يحملان بنادق صيدٍ جاهزةً للإطلاق.

اندفع ريغو نحو مكتب المحطة الصغير، وركل الباب الخشبي ليوقظ العامل النعسان من غفوته، ممسكاً إياه من ياقة قميصه الملطخ بالزيت:

«تكلّم بسرعة قبل أن أفرغ هذه البندقية في ركبتيك! هل مرّت من هنا سيارة فورد غالاكسي سوداء منذ أقل من ساعة؟»

ارتجف العامل ورفع يديه مستسلماً، مشيراً نحو الطريق الترابي الفرعي المؤدي إلى صحراء مابيمي:

«نعم... نعم يا سيدي! ملأ خزانه واشترى كوبين من القهوة بالقرفة، وأجرى اتصالاً من كشك الهاتف... ثم انحرف نحو الطريق القديم المؤدي إلى مابيمي!»

خرج ريغو مسرعاً نحو كشك الهاتف الزجاجي، فالتقط بعينيه الخبيرتين عقب سيجارةٍ فاخرةٍ مطفأً على الأرض، وكوباً ورقياً فارغاً تفوح منه رائحة القرفة. التقط جهاز اللاسلكي المثبت في شاحنته، وضغط زر الإرسال ليخترق صوته الأجش ضجيج العاصفة نحو قصر سيفيرو في تشيواوا:

«سيدي... لقد وقعنا على أثره. السائق لم يسلك الطريق السريع، بل انحرف إلى مسار المهربين القديم في صحراء مابيمي. لن يتمكن من السرعة في هذا الوحل، وسندركه قبل أن يبلغ وادي الصبار.»

داخل مقصورة الفورد غالاكسي، كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، والصحراء من حولهما تزداد وحشةً وظلاماً كلما توغلا في عمق «مابيمي». انقطع بث أغاني «لوس بانشوس» فجأة، وحلّ محله أزيزٌ كهربائيٌّ متقطع يشي بأن البوصلة وموجات المذياع بدأت تفقد صوابها في هذه البقعة الغامضة من الأرض.

مالت إيزابيل برأسها قليلاً نحو النافذة، ثم وقع بصرها مصادفةً على لوحة العدادات المضيئة، وعلى عمودٍ حجريٍّ صغيرٍ على جانب الطريق الترابي التقطته أضواء السيارة الأمامية للحظة. عقدت حاجبيها بدهشةٍ خفيفة؛ فقد قرأت على العمود رقماً يشير إلى مسافةٍ لا تتطابق مع الطريق المؤدي إلى توريون، بل إلى منطقةٍ مهجورةٍ تُعرف في خرائط الشمال باسم «أطلال الكيلومتر ١١٤».

وقبل أن تسأل، ارتطمت عجلة السيارة الأمامية بحفرةٍ عميقةٍ مخبأةٍ تحت بركةٍ من الوحل، فاهتزت المقصورة بعنف، وانزلقت من تحت مقعد السائق قطعةٌ معدنيةٌ ثقيلة ارتطمت بكعب حذاء إيزابيل. نظرت الفتاة إلى الأسفل في

الضوء العنبري الخافت، كانت سلسلةً حديديةً سميكةً ينتهي طرفها بقفلٍ نحاسيٍّ ضخم.

تصلّب جسد رافائيل للحظةٍ خاطفة، وامتدت يده بسرعةٍ البرق لتدفع السلسلة بقدمه إلى أسفل المقعد من جديد، ثم التفت إليها بابتسامةٍ هادئةٍ تخفي توتره المفاجئ:

«مجرد سلسلةٍ لسحب السيارة إذا علقت في رمال الصحراء يا إيزابيل... الطريق هنا مليءٌ بالمفاجآت.»

أومأت إيزابيل بصمت، لكن الدفء الذي كان يغمر صدرها قبل دقائق بدأ يتراجع ببطء، تاركاً مكانه برودةً غامضةً تتسلل إلى أطرافها؛ فقد أدركت في أعماقها أن اللحن العذب الذي عزفه رافائيل طوال الساعة الماضية قد بدأ يفقد نغمته الأولى، وأن الصحراء التي وعدها بأنها ستكون ملكاً لهما وحدهم، تخفي في ظلامها وجهاً آخر لم تكن مستعدةً لرؤيته بعد.

الفصل الثالث: كذبة الطريق المقطوع

مشارف ديليسياس — مفترق الصحراء | ٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٢٣:١٠ ليلاً

«الحقيقة في الطرق المظلمة لا تُقتل بالرصاص دائماً، بل تُخنق بهمسةٍ ناعمة وبقشيشٍ صغير. فالمسافة بين النجاة والهاوية لا تتجاوز أحياناً منعطفاً واحداً يختاره لك من يمسك بالمقود.»

عند مشارف «ديليسياس»، حيث تتنازع أضواء المدن الخافتة مع جحافل العتمة الزاحفة من قلب الصحراء، بدت البلدة في تلك الساعة المتأخرة من ليلة عيد الموتى كأنها سفينةٌ مهجورةٌ ترسو على حافة بحرٍ من الوحل. توقفت «الفورد غالاكسي» السوداء ببطءٍ متأنٍّ أمام كشكٍ خشبيٍّ متواضعٍ يبيع القهوة المحمصة بالقرفة وخبز الذرة الساخن؛ مأوى عابر للمسافرين الذين تقطعت بهم السبل أو أثقلهم السهر.

كانت لمبة نيون وحيدة تتدلى من سلكٍ مكشوفٍ فوق الباب الخشبي، تومض بترددٍ متقطعٍ كقلبٍ يحتضر، وتلقي بضوئها الشاحب على بركة ماءٍ

عكرةٍ تتكسر فيها قطرات المطر بلا انقطاع. وفي الزاوية المظللة تحت إفريز السقف الصفيحي، وقف سائق شاحنةٍ ضخمةٍ يرتدي سترةً جلديةً متآكلة، ينفض المطر عن قبعته العريضة ويدخن سيجارته بصمتٍ ثقيل، غير عابئٍ بالعالم من حوله.

في تلك اللحظة، بدت المحطة الصغيرة لإيزابيل كأنها آخر نقطة اتصالٍ بالعالم المألوف؛ عالم الناس العاديين، والأصوات الصادقة، والطرق التي تحمل أسماءً واضحةً تقود إلى مدنٍ حقيقية. كانت رئتاها تضيقان برائحة العطر الرجالي الدافئ داخل المقصورة، وشعرت بحاجةٍ ملحةٍ إلى استنشاق هواءٍ باردٍ يوقظ حواسها التي خدّرتها موسيقى المذياع وصوت رافائيل المخملي.

مدّت إيزابيل يدها المرتجفة نحو مقبض الباب المعدني، وهمّت بالنزول لتطلب كوب ماءٍ باردٍ يغسل جفاف حلقها، وربما لتسترق نظرةً إلى سائق الشاحنة الواقف في الزاوية، علّها تلمح في وجهه ملامح الأمان التي تفتقدها.

لكن يد رافائيل كانت أسرع من رغبتها؛ امتدت كفه العريضة برفقٍ حاسمٍ لتستقر فوق مقبض بابها، تمنعها من الفتح بابتسامةٍ حاميةٍ تفيض عنايةً أبوية زائفة:

رافائيل: «الأرض موحلة هنا وأحذيتكِ رقيقة. ابقي في الدفء، وسأجلب لكِ شاياً ساخناً بالقرفة يرد إليكِ عافيتك.»

تراجعت إيزابيل إلى مقعدها باستسلامٍ نجول، وأومأت برأسها شاكرةً، غافلةً عن العاصفة الحسابية التي كانت تدور خلف عيني رافائيل الهادئتين. في الحقيقة، لم يكن رافائيل يخشى عليها من البلل ولا من برد الرصيف؛ بل خشي من شيءٍ واحدٍ فقط: أن تقترب من سائق الشاحنة الضخم، أو أن تلتقط أذناها كلمةً عابرةً تكشف أن الطريق الفيدرالي العريض المؤدي إلى توريون مفتوحٌ وسالكٌ تماماً، وأن المطر لم يغلق سوى طرق الهاربين في أوهامهم.

ترجل رافائيل من السيارة وأغلق الباب بإحكام، تاركاً المحرك يدور بصوته المنخفض كوحشٍ يتربص في العتمة، ثم سار بخطواتٍ واثقةٍ نحو الكشك الخشبي، وهو يرفع ياقة معطفه الرمادي ليحمي عنقه من رذاذ المطر.

في الداخل، كان الكشك دافئاً تفوح منه رائحة القهوة المغلية، والقرفة، والذرة المشوية، وعرق المسافرين. خلف البار الخشبي المتآكل، كان النادل

العجوز «دون روفينو» يمسح الأكواب بقطعة قماشٍ رمادية، بينما كان سائق الشاحنة الضخم يتكئ بمرفقه على الطرف الآخر من البار، يتحدث بصوتٍ جهوريٍّ عن رحلته القادمة من الجنوب:
«الطريق من توريون إلى هنا نظيفٌ ككف اليد يا روفينو... مجرد زخات مطرٍ عابرة، ولا أثر لأي دورياتٍ على الجسر الكبير.»

تصلّب فك رافائيل لجزءٍ من الثانية وهو يسمع تلك الكلمات، ثم اقترب بهدوءٍ من الطرف البعيد للبار، بعيداً عن مسمع السائق، وانحنى نحو النادل العجوز. طلب كوبين من الشاي الساخن بالقرفة، وحين استدار روفينو ليصبهما، أخرج رافائيل ورقةً نقديةً من فئة المئتي بيزو—ثروةً صغيرةً في حسابات كشكٍ ناءٍ—ووضعها تحت صحن السكر، ثم همس بصوتٍ خفيضٍ متوسلٍ يتقن التمثيل:

«اسمعني جيداً يا صديقي... الفتاة التي في سيارتي مريضةٌ بالحمى وتهذي من الخوف، وأنا أحاول إقناعها أن الطريق السريع مغلقٌ كي أتمكن من أخذها إلى طبيبٍ مختصٍّ في مزرعةٍ قريبة دون أن تصاب بنوبة ذعر. إن سألك أحدٌ أو اقتربت من السيارة، لا تذكر أن الطريق سالك... اعتبر هذا المبلغ ثمناً لرحمتك بامرأةٍ مريضة.»

حدّق النادل في الورقة النقدية ثم في وجه رافائيل الأنيق، فابتلع ريقه وأومأ برأسه صامتاً؛ ففي بلادٍ يطحنها الفقر، يصبح الصمت أسهل سلعةٍ تُباع وأسرعها ربحاً.

بينما كان رافائيل ينتظر إعداد الشاي، التفت سائق الشاحنة الضخم بنظرةٍ فاحصةٍ نحو الخارج، حيث تقف «الفورد غالاكسي» السوداء تحت وميض النيون الأزرق. ضيّق السائق عينيه الخبيرتين بطرق الشمال؛ فقد أثار انتباهه ذلك التناقض الغريب: سيارةٌ فاخرةٌ سوداء، نظيفةٌ أكثر مما ينبغي لليلةٍ عاصفة، تتوقف في استراحةٍ لا يرتادها إلا سائقو الشاحنات والمهربون، ورجلٌ يرتدي معطفاً أرستقراطياً يشتري صمت النادل في الخفاء.

انتقل بصر السائق إلى وجه إيزابيل الشاحب الذي كان يطلّ بقلقٍ من خلف الزجاج المبلل للسيارة، فلمح في عينيها تلك النظرة التي لا يخطئها من جاب الصحراء ثلاثين عاماً: نظرة طريدةٍ تظن أنها في مأمن، بينما يقف الصياد عند الباب.

لم ينطق السائق بكلمةٍ واحدة، لكنه أطفأ عقب سيجارته ببطءٍ في المنفضة المعدنية، وحفظ في ذاكرته رقم لوحة السيارة السوداء وملامح الرجل ذي المعطف الرمادي. وحين حمل رافائيل الكوبين الورقيين الساخنين وخرج مسرعاً نحو سيارته، تبادلت عينا السائق وعينا النادل نظرةً صامتةً ثقيلة؛ نظرةٌ تقول إن المال قد يشتري لسان النادل الليلة، لكنه لا يستطيع أن يمحو أثر العجلات في الطين.

عاد رافائيل إلى مقصورة السيارة حاملاً الدفء والسمّ معاً في كوبين يتصاعد منهما بخار القرفة العطر. وما إن جلس خلف المقود وأغلق الباب ليعزلها مجدداً عن العالم الخارجي، حتى تقرب منها قليلاً، متعمداً أن يكسر تلك المسافة الضيقة التي كانت تفصل بينهما.

مدّ يده بالكوب الساخن نحوها، وحين رفعت إيزابيل يديها لتتناوله، لم يسحب أصابعه كما فعل في المرة الأولى؛ بل ترك أصابعه الدافئة تلامس أصابعها الندية عمداً، ومكث ممسكاً بالكوب لحظتين أطول مما ينبغي.

سرت قشعريرةٌ غريبةٌ في أوصال إيزابيل؛ لم تكن قشعريرة بردٍ هذه المرة، بل ارتباك امرأةٍ لم يلمس رجلٌ يدها بهذه الرقة المحسوبة من قبل. نظرت

إلى أصابعه التي تحيط بأصابعها فوق الكوب الورقي، ثم رفعت عينيها نحو وجهه القريب، حيث ينعكس ضوء النيون الخافت في حدقتيه الداكنتين كجمرٍ يختبئ تحت الرماد.

أرادت أن تسحب يدها، لكن نظرته الثابتة، الممزوجة بحنانٍ غامضٍ وسلطةٍ خفية، شلّت حركتها للحظة، وجعلتها تشعر أن هذا الرجل يمسك بخيوط مصيرها كلها في راحة يده.

سحب رافائيل يده ببطءٍ مدروسٍ بعد أن تأكد أن رسالته الصامتة قد وصلت إلى أعماقها، ثم أسند ظهره إلى المقعد الجلدي، وزفر تنهيدةً عميقةً تحمل من الأسى المصطنع ما يكفي لإقناع قديسة. نظر إلى الأمام نحو الظلام، وقال بصوتٍ خفيضٍ يقطر قلقاً مصطنعاً:

رافائيل: «سمعتُ أخباراً سيئة في الداخل يا صغيرتي. الأمطار جرّفت جسراً خشبياً قبل خيمينيز، والشرطة أغلقت الطريق السريع حتى الصباح. لكن لا تخافي... أعرف طريقاً قديماً عبر كثبان مابيمي، طريقاً لا يمر به إلا القليل، سنوفر فيه ساعتين ونبتعد عن زحام الدوريات.»

تجمد الكوب الساخن بين يدي إيزابيل، وارتجفت أوصالها وهي تسمع تلك العبارة التي رنّت في أذنيها كناقوس خطرٍ بعيد: «طريق لا يمر به إلا القليل». في فلسفة الهاربين، الطريق الذي لا يمر به أحد هو المكان الذي تختفي فيه الجرائم دون شهود، وتبتلع فيه الرمال الصرخات دون صدى.

رفعت عينيها نحو وجهه الدافئ الذي لم ترَ فيه حتى الآن إلا الكرم والرقة والحماية؛ تذكرت كيف أبعد عنها الرقيب موراليس في تشيواوا، وكيف غطاها بسترته الصوفية من البرد، وكيف دفع من ماله عند الحاجز الريفي ليحميها. ابتلعت خوفها بصعوبة، وقالت بصوتٍ خافتٍ يكاد يغالب الدموع، تعبّر فيه عن حقيقة عجزها الوجودي:

إيزابيل: «لا أعرف هذه الصحراء يا رافائيل... لو أراد رجلٌ أن يضيع فيها لأضاعني معه. لكني لا أستطيع الانتظار للصباح لأنهم إن وجدوني في ديليسياس سيعيدونني مقيدةً إلى بيت عمي.»

أدرك رافائيل في تلك اللحظة أن الفريسة قد وضعت عنقها طواعيةً بين يديه؛ فهي تخشى الماضي أكثر مما تخشى المجهول، وتهرب من جحيمٍ تعرفه إلى جحيمٍ يرتدي ثوب الملاك الحارس.

لم يبتعد رافائيل، بل اقترب برأسه ببطءٍ شديدٍ حتى لمس عطر أنفاسه الدافئ وجنتها الشاحبة، وامتلأ الفضاء الضيق بينهما برائحة التبغ الفاخر والقرفة وخشب الأرز. همس بنبرةٍ مغويةٍ تقطر عذوبةً وخطراً، بصوتٍ يشبه تعويذةً تُلقى في أذن نائمٍ كي لا يستيقظ أبداً:

رافائيل: «ومن قال إنكِ ستضيعين ما دامت يدكِ قريبةً من يدي؟ ثقِي بي هذه الليلة يا إيزابيل... اتركي لي الطريق، واتركي لنفسكِ حرية أن تشعري بالأمان مع رجلٍ اختاركِ قلبه من النظرة الأولى.»

توقفت أنفاس إيزابيل للحظة، وشعرت بدوارٍ خفيفٍ يلفّ رأسها. لم تكن تعرف في حياتها القصيرة معنى أن يختارها قلب رجلٍ من النظرة الأولى؛ فقد عاشت طوال أعوامها الخمسة والعشرين كظلٍّ صامتٍ في بيت عمها، وكسلعةٍ تُباع في سوق الديون لـ دون سيفيرو. والآن، يهمس في أذنها رجلٌ وسيمٌ أنيقٌ بأن قلبَه اختارها! لم تدرك المسكينة أن القلوب التي تتحجر في طرق التهريب لا تختار النساء حباً، بل تختارهن ثمناً؛ وأن أعذب الكلمات في ليل الصحراء هي تلك التي تسبق السقوط في الهاوية.

أومأت إيزابيل برأسها إغماضةً صامتة، كانت في ظاهرها استسلاماً للثقة، وفي باطنها استسلاماً للقدر الذي لا تملك له رداً. ابتسم رافائيل في العتمة ابتسامة المنتصر الذي أنهى أصعب فصول لعبته دون أن يريق قطرة دمٍ واحدة، ثم أعاد يديه إلى المقود، وعشّق ناقل الحركة بسلاسةٍ باردة.

انعطفت السيارة يميناً بحدة محسوبة، تاركةً أعمدة الكهرباء المضاءة للطريق الرئيسي الذي يمتد مستقيماً نحو الجنوب، وغاصت عجلاتها الثقيلة في ممرٍّ ترابيٍّ أسود يخترق الصحراء المفتوحة؛ ممرٍّ لا يعرفه إلا الصمت، ولا تحده لافتات، ولا رقيب فيه على نوايا السائق الذي بدأ للتو يخطو نحو هدفه المظلم.

مع كل مترٍ تقطعه «الفورد غالاكسي» داخل ذلك المسار الترابي، كانت معالم الحضارة تتلاشى خلفهما كحلمٍ قديم؛ اختفى صوت المطر على الأسفلت وحلّ محله قرقعة الحصى تحت الإطارات، واختفت أعمدة النور لتحل محلها ظلال أشجار الصبار الملتوية التي بدت في ضوء المصابيح الأمامية كأذرعٍ يابسةٍ تستغيث بالسماء.

في تلك الأثناء، لم تكن الصحراء خاليةً كما ظن رافائيل؛ فعلى بُعد عشر دقائق فقط خلفهما، اقتحمت شاحنة «البيك أب» الحمراء الملطخة بالوحل باحة

كشك ديليسياس الخشبي، وأوقفت محركها بصريرٍ حادٍّ مزّق سكون الليل. ترجّل منها «ريغو» ورجاله الثلاثة، تقطر بنادقهم ومعاطفهم ماءً، ووجوههم تشتعل بغضب الصيادين الذين أفلتت منهم الطريدة مرتين.

اندفع ريغو نحو البار الخشبي، وضرب الطاولة بقبضته الحديدية حتى اهتزت الأكواب:
«أخبرني حالاً أيها العجوز... هل مرّت من هنا سيارة فورد غالاكسي سوداء تحمل فتاةً شابة؟»

تلعثم النادل دون روفينو، متذكراً الورقة النقدية المخبأة تحت صحن السكر، فحاول أن يراوغ:
«لا... لم أرَ شيئاً يا سيدي، المطر يحجب الرؤية منذ ساعات...»

لكن قبل أن يكمل كذبته، خطا سائق الشاحنة الضخم من الزاوية المظللة، ونفض الرماد عن سيجارته وهو ينظر باحتقارٍ إلى النادل، ثم التفت إلى ريغو بصوتٍ هادئٍ عميق:

«إنه يكذب. الفورد غالاكسي السوداء كانت هنا قبل عشر دقائق فقط. كان مع السائق فتاةٌ شابةٌ ترتدي معطفاً عاجياً، وقد انعطفا يميناً فور خروجهما نحو المسار الترابي القديم المؤدي إلى كثبان مابيي.»

لمعت عينا ريغو بشرٍّ مستطير، فرمى بعملةٍ فضيةٍ نحو سائق الشاحنة، وصاح في رجاله وهو يركض نحو البيك أب:
«لقد حاصر نفسه بنفسه في الرمال! اتبعوه... لن يجد مخرجاً من مابيي الليلة!»

في عمق الظلام الصحراوي، حيث لم يعد هناك طريقٌ ولا أثرٌ لعجلاتٍ سابقة، كانت «الفورد غالاكسي» تشقّ طريقها بصعوبةٍ فوق الحصى والرمل المبلل، تتأرجح أضواؤها الصفراء فوق الكثبان المنخفضة كعيني ذئبٍ يبحث عن مخبئه.

وبينما كانت قطرات القهوة والقرفة ما تزال دافئةً بين راحتيها، استدارت إيزابيل قليلاً نحو الزجاج الخلفي لترى أنوار استراحة ديليسياس تتلاشى كجمرةٍ صغيرةٍ في الخلف، قبل أن يبتلعها الأفق الأسود تماماً وتنقطع آخر صلةٍ لها بالعالم الحي.

أعادت إيزابيل نظرها ببطءٍ إلى داخل المقصورة، حيث كان الضوء العنبري الخافت للعدادات ينعكس على نصف وجه رافائيل. في تلك اللحظة العابرة، سقط قناع الحنان الأبوي عن ملامحه لثانيةٍ واحدةٍ دون أن ينتبه؛ لم تعد هناك نظرة الشفقة التي رأتها في محطة تشيواوا، ولا الحنان الذي شعرت به عند استراحة ديليسياس. بدلاً من ذلك، رأت على شفتيه ابتسامةً هادئةً، باردةً، ومطمئنةً بشكلٍ يبعث على الرعب؛ ابتسامةٌ تتسع قليلاً كلما اهتزت السيارة فوق الحصى البعيد عن كل أثرٍ للبشر.

شدّت إيزابيل أصابعها المرتجفة حول الكوب الورقي الدافئ حتى كاد ينثني بين يديها، وتساءلت في سرها بقلبٍ بدأ يقرع طبول الخطر أخيراً: «لماذا يبتسم رجلٌ أضاع الطريق... كأنه وصل للتو إلى بيته؟»

الفصل الرابع: نزل الرمال والغرفة الوحيدة

قلب صحراء مابيمي — نزل الرمال | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٠٠:٤٥ بعد منتصف الليل

«في منتصف الصحراء، حيث تنقطع أسلاك الهاتف وتغيب عيون القانون، يصبح الإنسان هو الشريعة والجلاد؛ غير أن الرمال التي تبدو صامتةً تحت أقدام المخادعين، تملك ذاكرةً من زجاجٍ لا تلبث أن تنكسر تحت عجلات الحقيقة.»

في منتصف الصحراء تماماً، عند تلك النقطة المنسية من خرائط الشمال حيث تتلاشى أسلاك الهاتف كما تتلاشى الوعود، ولا يجرؤ حراس الطرق على مدّ أبصارهم في عتمتها، بدا الأفق وكأنه لوحةٌ من الفحم الرطب لا يحدّها سوى صمت الأزل. كانت «الفورد غالاكسي» السوداء تئنّ تحت وطأة الرمال المبللة والوحل المتجمد، تقتات على آخر قطرات الوقود وتشقّ صدر العتمة كسفينةٍ ضلّت منارتها في محيطٍ من العدم.

وفجأةً، وسط ذلك الامتداد الموحش الذي لا تسكنه سوى أشباح الصبار والريح، تراءت على البعد أضواء مصباحين زيتيين باهتين، يتأرجحان بضعفٍ على جدار نزلٍ منخفضٍ مشيّدٍ من الطوب اللبن؛ مبنىً عتيقٌ نبت من طين الصحراء كأنه صخرةٌ تآكلت بفعل الزمن، ويُعرف بين السائقين القدامى والمهربين باسم «نزل الرمال». لم يكن ذلك النزل فندقاً بالمعنى الذي يعرفه أهل المدن، بل كان استراحةً للمنبوذين، وملجأً مؤقتاً للهاربين من العدالة، ومحطةً أخيرةً لكل من أضاع بوصلته بين تشيواوا وتوريون.

أدار رافائيل المقود بمهارةٍ باردة، فلم يوقف السيارة أمام الواجهة المضاءة بالمصباحين الزيتيين، بل انحرف بها في صمتٍ إلى الفناء الترابي الخلفي المظلم، وأوقفها خلف جدارٍ متهدمٍ من الطوب، بعيداً عن أعين المارة أو أي عابر سبيلٍ قد يلمح هيكلها الأسود. أطفأ المحرك والمصابيح في آنٍ واحد، فهبط على المقصورة سكونٌ كثيفٌ لا يقطعه سوى صوت قطرات المطر المتبقية وهي تتساقط فوق المعدن الساخن.

التفت رافائيل إلى إيزابيل بابتسامةٍ هادئةٍ تخفي توتره، وأسرع بالنزول قبل أن تترجل هي، كأنه يستبق خطواتها ليُحكِم إغلاق المشهد قبل أن تبدأ هي بقراءة تفاصيله.

دفعا الباب الخشبي المتآكل ليدخلا إلى بهوٍ ضيقٍ تفوح منه رائحة التبغ القديم، والخشب الرطب، وشيءٌ من دخان الحطب المحترق. خلف طاولةٍ مخشبةٍ عاليةٍ نُقشت عليها عشرات الأسماء المنسية بالسكاكين، كانت تقف «دونيا كارمين»؛ امرأةٌ في الرابعة والخمسين من عمرها، ذات وجهٍ نحاسيٍّ حفرت فيه رياح مابيمي أخاديد من الحكمة والمرارة، وعينين سوداوين غائرتين تشبهان بئرين قديمتين لا يغوص فيهما ضوءٌ إلا ويعود بالحقيقة.

حدّقت دونيا كارمين في وجه رافائيل بنظرةٍ باردةٍ صلبةٍ لا تنطلي عليها ابتسامته المهذبة ولا معطفه الأنيق؛ فقد رأت خلال ثلاثين عاماً في هذا النزل عشرات الرجال الذين يرتدون ثياب النبلاء ويجرّون خلفهم نساءً خائفاتٍ كالأضاحي.

تقدّم رافائيل بخطواتٍ واثقة، ووضع بضع أوراقٍ نقديةٍ فوق الخشب المتآكل، طالباً غرفةً واحدةً فقط بحجة أن العاصفة والمطر قد أفسدا بقية غرف النزل، وأنه يريد مأوىً دافئاً يرتاح فيه مع رفيقته ريثما يهدأ الليل.

تأملت العجوز النقود لحظة، ثم رفعت بصرها لتحدج إيزابيل التي دخلت للتو متلفعةً بسترته الصوفية الثقيلة، تضم لفافتها القماشية إلى صدرها وتنظر حولها بعينين مذعورتين لا تعرفان أين حطّت بهما الرحال. كانت نظرة دونيا كارمين للفتاة نظرة أمٍّ ثكلى تعرف مسبقاً نهاية هذه الحكاية، وتدرك أن البراءة حين تدخل نزل الرمال ليلاً لا تخرج منه أبداً بالوجه ذاته.

مدّت العجوز يدها الخشنة وناولت رافائيل مفتاحاً نحاسياً باهتاً، وتردد صوتها بمرارةٍ مكبوتةٍ تشبه حفيف الرمل تحت الأقدام:

دونيا كارمين: «الصحراء يا ولدي لا تخبئ أسرار الرجال طويلاً. والغرف التي تُؤخذ بالخداع لا تخرج منها الأرواح كما دخلت.»

تجاهل رافائيل تلميحها بضحكةٍ خفيفةٍ باردةٍ لا تصل إلى عينيه، وكأن كلمات العجوز مجرد هذيانٍ تفرضه عزلة الصحراء على سكانها، ثم التفت إلى إيزابيل وأشار لها برقةٍ مصطنعةٍ أن تتبعه عبر ممرٍّ طويلٍ معتمٍ يتفرع من جانب البهو.

سارت إيزابيل خلفه بخطواتٍ مترددة، تشعر بثقل الهواء في ذلك الممر الضيق، كانت الجدران الطينية الرطبة تمتص صدى خطواتهما، بينما تتدلى من السقف الخشبي خيوط عنكبوتٍ قديمة تهتز مع كل نسمة ريحٍ تتسلل من الشقوق. في كل خطوةٍ كانت تخطوها، كان صوت دونيا كارمين يتردد في أعماقها كناقوس إنذارٍ متأخر: «الغرف التي تُؤخذ بالخداع لا تخرج منها الأرواح كما دخلت».

وفي الخلف، عند الطاولة المخشبة في البهو، ظلت دونيا كارمين واقفةً في مكانها تراقب طيفهما وهو يبتعد في عتمة الممر. لم تكن العجوز ساذجة؛ فقد رأت الطريقة التي أخفى بها الرجل سيارته في الفناء الخلفي، ورأت ارتجاف أصابع الفتاة وهي تمسك بسترته، كما سمعت في ريح الليل همساً خفياً لا يسمعه إلا من عاش في مابيمي طويلاً: همس عاصفةٍ بشريةٍ تقترب من بعيد.

انحنت دونيا كارمين ببطءٍ تحت الطاولة الخشبية، وتحسست بأصابعها المعروقة معدن بندقيتها القديمة ذات الفوهتين، ثم أخرجتها بصمتٍ ووضعتها على ركبتيها وهي تتمتم بصلاةٍ قصيرةٍ للقديسة العذراء؛ فقد كانت تعلم أن هذه الليلة لن تنتهي بسلامٍ في نزل الرمال.

قاد رافائيل إيزابيل إلى نهاية الممر، حيث أدار المفتاح النحاسي في قفلٍ صدئ، ودفع باباً خشبياً ثقيلاً ليفتح لهما غرفةً ضيقةً تنبعث منها رائحة التراب الجاف والزيت المحترق. كانت الغرفة تضاء بفانوسٍ نحاسيٍّ واحدٍ موضوعٍ فوق طاولةٍ صغيرةٍ في الزاوية، يلقي بضوئه الأصفر المرتعش على الجدران الطينية العارية، ويتوسطها سريرٌ خشبيٌّ عريضٌ مغطى ببطانيةٍ صوفيةٍ خشنة، وإلى جواره مقعدٌ خشبيٌّ وحيد ومدفأةٌ حجريةٌ صغيرة خمدت فيها الجمر منذ ساعات.

دخلت إيزابيل ببطء، وتوقفت في منتصف الغرفة كغريبٍ دخل قبراً أُعدّ له بعناية. وحين أغلقت الخشبة الثقيلة للباب خلفهما بصوتٍ مكتوم، وسمعت صوت المزلاج الحديدي يدور في مكانه ليحبسهما معاً داخل تلك المساحة الضيقة، انتفض جسدها كأن شرارةً كهربائيةً سرت في عمودها الفقري.

استيقظ فزعها فجأةً من سباته الطويل، وتبدد في ثانيةٍ واحدةٍ كل ذلك الحدر العاطفي الذي نسجه رافائيل حولها طوال ساعات الطريق. التفتت إليه بعينين متسعتين يملؤهما الذهول والريبة، وتراجعت خطوةً إلى الوراء وهي تشدّ سترته الصوفية حول كتفيها كدرعٍ هشّ:

إيزابيل: «رافائيل... لماذا غرفةٌ واحدة؟ ولماذا أقفلت الباب هكذا؟ أخبرتني أننا سنرتاح ريثما يهدأ الغبار ثم نتابع إلى توريون!»

في تلك اللحظة، سقطت الأقنعة الرقيقة التي تفصل بين الصياد والفريسة. لم يعد هناك طريقٌ طويلٌ يلهي الانتباه، ولا مذياعٌ يعزف ألحان «لوس بانشوس» ليخدّر الحواس، ولا مقودٌ يشغل يدي رافائيل عن هدفه الحقيقي.

خلع رافائيل معطفه الرمادي الأنيق ببطءٍ متعمّدٍ وألقاه فوق المقعد الخشبي الوحيد، ثم التفت نحوها؛ كان الضوء الأصفر للفانوس النحاسي يرسم على وجهه ظلالاً حادةً تمنحه ملامح رجلٍ يقف على حافة رغبةٍ مظلمةٍ وطمعٍ لا يرحم. ففي رأسه، كانت هذه الغرفة هي المحطة الأخيرة قبل تسليمها لعصابة «إل بويتري» عند الفجر، ولم يكن ينوي أن يخرج من هنا دون أن ينتزع منها سند الملكية المخبأ في لفافتها، ودون أن يطفئ ذلك الظمأ الغامض الذي أيقظته براءتها في عروقه طوال الليل.

تقدم نحوها بخطواتٍ بطيئةٍ متزنة، تشبه خطوات نمرٍ يضيق الدائرة حول غزالةٍ محاصرة في وادٍ مسدود، وصوته لا يزال يقطر دفئاً مغرياً رغم التوتر الثقيل الذي بدأ يتكثف في هواء الغرفة:

رافائيل: «الأمطار أتلفت سقوف الغرف الأخرى يا صغيرتي... ولم أستطع أن أتركَ تنامين وحدكِ في البرد بينما أنا في الممر. لا تخافي مني؛ فقط اقتربي من المدفأة... الليل طويل، وما بدأناه في السيارة لا ينبغي أن ينتهي عند العتبة.»

تراجعت إيزابيل خطوةً أخرى، ثم خطوةً ثالثة، حتى اصطدم ظهرها بحافة الجدار الطيني البارد خلفها؛ لم يعد هناك مكانٌ للهرب، ولا بابٌ مفتوح، ولا نافذةٌ تتسع لجسدها النحيل. شعرت ببرودة الطين تتسلل عبر معطفها العاجي إلى عظامها، بينما كانت حرارة أنفاس رافائيل تقترب منها شيئاً فشيئاً، تملأ المسافة الضيقة بينهما برائحة التبغ الفاخر وخشب الأرز.

ارتعشت شفتاها بقوة، وحاولت أن تفتح فمها لتصرخ، لكن صوتها اختنق في حنجرتها كما تختنق الصرخات في الكوابيس؛ فمن سيسمعها في منتصف

صحراء مابيمي؟ عجوزٌ وحيدةٌ خلف طاولةٍ خشبية أم الرمال الصماء التي ابتلعت آلاف الأسرار قبلها؟

كانت إيزابيل في تلك اللحظة تعيش أشدّ أنواع التمزق الإنساني قسوة، كانت ممزقةً بين خوفها المذعور من هذا الرجل الذي أغلق الباب بالمزلاج وحاصرها عند الجدار، وبين ذلك التعلق الغريب والارتباك العاطفي الذي أوقعتها فيه كلماته الحانية طوال ثلاث ساعات. فقد كان هو الرجل الوحيد الذي مدّ لها يده في المطر، وغطّاها بسترته من البرد، وهمس باسمها كأنه أغنية، فكيف يتحول المنقذ في لحظةٍ واحدةٍ إلى سجان؟ وكيف يصبح الصوت الذي منحها الأمان هو ذاته الذي يزرع الرعب في قلبها الآن؟

وقف رافائيل أمامها مباشرةً، يفصل بين وجهيهما شبرٌ واحدٌ فقط من الهواء المشحون بالرغبة والخوف. مدّ يديه ببطءٍ ليحيط بوجنتيها الشاحبتين، وعيناه الداكنتان تلمعان في ضوء الفانوس ببريقٍ غامضٍ يجمع بين الافتتان بالبراءة وبين قسوة من اعتاد امتلاك ما يريد.

أغمضت إيزابيل عينيها باستسلامٍ عاجز، وارتجف جسدها كله كعصفورٍ بين قبضة صياد، فانزلقت من بين رموشها المبللة دمعةٌ ساخنة، سقطت ببطءٍ

فوق يديه الممدودتين نحو وجهها، دمعةٌ واحدةٌ كانت تحمل في ملوحتها كل خذلان حياتها، من بيع عمها لها، إلى قسوة سيفيرو، إلى خيانة هذا الغريب الذي وثقت به.

توقف رافائيل لجزءٍ من الثانية وهو يشعر بحرارة تلك الدمعة تلسع جلده، لم يكن معتاداً أن تبكي فرائسه بصمتٍ يوجع القلب هكذا، فقد كانت دمعتها نقيّةً إلى حدٍّ أربك قسوته للحظة، وجعله يتردد بين أن يكمّل لعبته القذرة وبين أن يتراجع.

وهنا... في اللحظة نفسها التي كاد يغلق فيها كل مسافةٍ بينهما، وقبل أن تلامس شفتاه جبينها المرتجف، اخترق سكون الصحراء الصامت ضجيجٌ مزلزلٌ لمحركي شاحنتين مسرعتين تشقّان الرمال بعنف، وانعكست أنوارهما البيضاء القاسية على زجاج النافذة الصغيرة للغرفة كأنها سيوفٌ ضوئيةٌ تشق الليل وتعلن ساعة الحساب.

ارتجّت جدران الطوب اللبن في «نزل الرمال» تحت هدير المحركات الغاضبة، وتطايرت حبات التراب من السقف الخشبي فوق الفانوس النحاسي، فاهتزت شعلته وكادت تنطفئ.

في الخارج، لم يكن القادمون مجرد عابري سبيلٍ تائهين في العاصفة؛ فقد كان «ريغو» ورجال دون سيفيرو المسلحون قد تتبعوا آثار إطارات «الفورد غالاكسي» في الرمال الرطبة منذ خروجها من ديليسياس، ولم تخطئ أعينهم الخبيرة ذلك الانحراف الخفي خلف الجدار الخلفي للنزل. توقفت شاحنتا «البيك أب» بعنفٍ أمام الواجهة، ترشّان الوحل والحصى على الجدران، وترجل منهما خمسة رجالٍ يحملون بنادق صيدٍ قصيرة ومصابيح يدوية، تتقدمهم صرخات ريغو الغاضبة وهو يركل باب البهو الخشبي: «افتحوا هذا الجحر! نعلم أن السيارة السوداء هنا!»

داخل الغرفة الضيقة، تجمدت أنفاس إيزابيل، واتسعت عيناها برعبٍ يفوق كل ما شعرت به قبل ثوانٍ؛ لم يعد هناك مجالٌ للشك في هوية القادمين. التفتت برأسها نحو النافذة التي تشتعل بوهج المصابيح البيضاء، وهمست بصوتٍ مبهورٍ ومذعورٍ يكاد ينقطع من هول الصدمة:

إيزابيل (بهمس مبهور ومذعور): «يا إلهي... إنهم رجال سيفيرو! لقد لحقوا بي إلى هنا!»

تسمّر رافائيل في مكانه وتغيرت ملامحه في ثانيةٍ واحدة؛ اختفت نظرة الغواية الدافئة وتبخر ذلك الحنان المصطنع الذي غلّف صوته طوال الليل، وحلّ مكانه وجهٌ صلبٌ قاسٍ كالصخر، وجهٌ لم تره إيزابيل من قبل، وجه رجلٍ أدرك فجأةً أن لعبته الليلية قد تحولت إلى نفقٍ من الرصاص الحقيقي.

تراجع رافائيل خطوةً سريعةً عن الجدار، وعقله يعمل بسرعةٍ جنونيةٍ لحساب أبعاد الكارثة؛ فالأمر لم يعد يتعلق بفتاةٍ هاربةٍ يبيعها لعصابة «إل بويتري» فحسب، بل إن رجال سيفيرو إذا اقتحموا الفناء الخلفي وفتشوا «الفورد غالاكسي»، فلن يجدوا الفتاة وحدها، بل سيجدون صناديق البنادق المهربة وسبائك الفضة المخبأة تحت ألواح الصندوق! وحينها لن يكتفي سيفيرو باستعادة خطيبته الشاردة، بل سيأمر بدفن رافائيل حياً في رمال مابيمي دون أن يرف له جفن.

انحنى رافائيل بسرعة البرق، والتقط معطفه الرمادي عن المقعد، ليخرج من جيبه الداخلي مسدساً أسود ثقيلاً من طراز «كولت»، سحب أقسامه بصوتٍ معدنيٍّ حادٍّ جعل قلب إيزابيل ينتفض في صدرها. نظرت الفتاة إلى السلاح في يده بذهولٍ تام؛ لقد أدركت في تلك اللحظة أنها لم تكن طوال الطريق مع رجلٍ نبيلٍ أو عاشقٍ حالم، بل مع رجلٍ من عالم الظل والبارود.

في البهو الأمامي للنزل، دوّى صوت صراخ ريغو وهو يهدد دونيا كارمين، تبعه صوت ارتطام أقدامٍ ثقيلةٍ تبدأ باقتحام الممر المعتم المؤدي إلى الغرف. اقترب رافائيل من الباب الخشبي المغلق، وأطفأ الفانوس النحاسي بنفخةٍ سريعةٍ ليغرق الغرفة في ظلامٍ دامسٍ لا يقطعه سوى شعاع المصابيح البيضاء المتسلل من شقوق النافذة.

وقف رافائيل ملتصقاً بالحائط قرب الباب، رافعاً مسدسه في العتمة، بينما تراجعت إيزابيل إلى الزاوية البعيدة خلف السرير، تحتضن لفافتها القماشية وتكتم أنفاسها بيدها المرتجفة. التفت رافائيل نحوها في الظلام، وحدّق في عينيها اللامعتين كعيني قطٍّ خائف، وهمس بصوتٍ منخفضٍ يقطر برودةً وحزماً لا يشبه صوته السابق على الإطلاق:

«الآن انتهى وقت الكلام العذب يا إيزابيل... إذا فتحتِ فمكِ بحرفٍ واحد، فسيأخذونكِ إلى قبركِ في تشيواوا، وسأذهب أنا إلى قبري هنا. ابقي صامتةً خلف السرير، واتركي للرصاص أن يتكلم.»

في تلك اللحظة الفاصلة، ومع اقتراب خطوات رجال سيفيرو من عتبة الغرفة، أدركت إيزابيل أن الصياد والفريسة قد أصبحا في قفصٍ واحد، وأن العاصفة الحقيقية في صحراء الظلال قد بدأت للتو.

الفصل الخامس: اعترافٌ تحت ضوء الفانوس

قلب صحراء مابيمي — نزل الرمال | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٠١:٠٥ بعد منتصف الليل

«حين يقرع الموت أبواب الغرف المغلقة، تسقط كل الأكاذيب التي نسجها اللسان في ساعات الطمأنينة؛ ففي حضرة الخطر الحقيقي، لا ينجو المرء بما يملك من حيلة، بل بما تبقى في روحه من إنسانيةٍ لم تلوثها الطرق الطويلة.»

توقفت الشاحنتان فجأةً عند السياج الترابي المتآكل أمام واجهة «نزل الرمال»، كأن وحشين معدنيين قد انقضّا من قلب العتمة على فريسةٍ حوصرت في آخر بقعةٍ من الأرض. انبعث من مكابحهما صريرٌ حادٌّ مزّق سكون الصحراء، وتطايرت كتل الوحل والحصى لتصطدم بجدران الطوب اللبن، قبل أن يرتفع صوت أبوابٍ معدنيةٍ ثقيلةٍ تُفتح بعنفٍ وسط رذاذ المطر الخريفي المختلط بغبار مابيمي؛ ذلك الغبار العتيق الذي يعلق بالملابس والعيون كأنه رماد أزمنةٍ غابرة.

في الغرفة الضيقة التي لا يفصلها عن الساحة الخارجية سوى جدار طوبٍ متآكلٍ نخره الملح والريح، ونافذةٍ صغيرةٍ مغطاةٍ بستارٍ مهترئٍ يتأرجح مع كل نسمةٍ متسللة من الشقوق، كانت أنفاس إيزابيل تتلاحق بشدةٍ كأنها عدت أميالاً طويلةً في العتمة دون توقف. كان صدرها يعلو ويهبط تحت معطفها العاجي وسترة رافائيل الصوفية، وعيناها معلقتان بالستار الممزق الذي صارت خيوطه البالية ترتجف تحت وقع الأضواء القادمة من الخارج.

في الخارج، لم يكن هناك صمتٌ بعد الآن؛ بل ضجيج رجالٍ اعتادوا أن يأخذوا ما يريدون بقوة السلاح والمال، رجالٍ لا يرون في الليل سوى ساحة صيدٍ مفتوحة، ولا في البشر سوى أرقامٍ في دفاتر أسيادهم.

تراجع رافائيل خطوةً بطيئةً إلى الوراء، مبتعداً عن الجدار الذي كان يحاصر عنده إيزابيل قبل لحظات، وأصغى بتركيزٍ حادٍّ إلى صياح الرجال في الخارج. للمرة الأولى منذ أن التقاها عند ذلك المصباح المبلل في تشيواوا، لم يكن يفكر في ساقيها المرتجفتين، ولا في نعومة بشرتها، ولا في دفء الفراش الخشبي الذي أعدّه لليلتهم؛ بل تلاشت كل تلك الهواجس الأنانية دفعةً واحدة، وحلّت محلها يقظة رجلٍ يشمّ رائحة البارود والموت عن قرب.

كان رافائيل يستمع بكل جوارحه إلى نبرة الأصوات الحادة التي تأمر وتشتم في الفناء، وإلى وقع الأحذية الجلدية الثقيلة وهي تغوص في الوحل، وإلى أزيز المصابيح الكاشفة القوية التي بدأت تمسح جدران النزل كأعين حيوانٍ مفترسٍ يبحث عن أثرٍ حيٍّ بين الأنقاض.

أدرك في تلك الثانية أن المطاردة التي تحدثت عنها الفتاة لم تكن مجرد غضب عمٍّ عجوزٍ أو نزوة قريبٍ متسلط، بل كانت حملةً مسلحةً يقودها أصحاب نفوذٍ لا يهابون الله ولا القانون في صحراء مابيمي. التفت نحوها، وخفض صوته بحزمٍ مفاجئٍ لم يكن فيه أي أثرٍ لتلك العذوبة المصطنعة التي غلّف بها حديثه طوال الليل:

رافائيل: «من هؤلاء الذين يطاردونكِ في هذا الليل يا إيزابيل؟ تحدثي بسرعة... أهذا عمّك أم رجال شرطة؟»

انكمشت إيزابيل عند زاوية السرير الخشبي، وضمّت شال والدتها الصوفي إلى صدرها بكلتا يديها كما لو كانت تحتمي بذكرى امرأةٍ رحلت عن هذا العالم القاسي قبل أن ترى ابنتها تُباع في سوق الديون. كانت دموعها تنهمر بصمتٍ موجعٍ على وجنتيها الشاحبتين تحت نور الفانوس النحاسي المتأرجح؛ ذلك

الضوء الأصفر الخافت الذي كان يلقي بظلالٍ مرتعشةٍ على الجدران الطينية، ويكشف في عينيها عن انكسار روحٍ لم تعرف في حياتها سوى الخوف والخذلان.

لم تكن إيزابيل تتقن المراوغة ولا اختلاق القصص، ولم تعرف يوماً كيف تلوّن الحقيقة لتنجو بنفسها؛ فقد كانت براءتها عاريةً كحجرٍ أبيض في قاع نهرٍ صافٍ. رفعت رأسها قليلاً، وخرج صوتها مكسوراً كزجاجٍ رقيقٍ يتشقق تحت ضغط البرد:

إيزابيل: «اسمه سيفيرو مونتالفا... مالك مزارع ومناجم حول بارّال. اشترى ديون عمي على الأرض مقابل أن أتزوجه عند قداس الفجر غداً.»

توقفت للحظةٍ لتلتقط شهقة بكاءٍ كادت تخنقها، بينما كانت رياح الصحراء تعوي خارج النافذة كأنها ترثي حالها، ثم تابعت بصوتٍ يرتجف من هول الذكرى:

إيزابيل: «حين رفضتُ وبكيتُ على قبر أمي، هدّد عمي بحبسنا أنا وخالتي في توريون... وقال سيفيرو إنه سيعيدني مقيدةً ولو اختبأتُ في بطن الأرض.»

رنّ اسم «سيفيرو مونتالفا» في أذني رافائيل كضربة فأسٍ على صخرة؛ ففي شمال المكسيك، من حدود تشيواوا إلى مناجم بارّال وأطراف دورانغو، لا ينطق أحدٌ اسم آل مونتالفا دون أن يخفض صوته. إنهم أسياد الفضة والدم، الرجال الذين يملكون المزارع، ويمولون السياسيين، ويدفنون خصومهم في آبار المناجم المهجورة دون أن يجرؤ قاضٍ على فتح ملفٍّ واحد.

نظر رافائيل إلى تلك الفتاة النحيلة المتكورة في زاوية السرير، وأدرك حجم الفاجعة التي كانت تعيشها؛ فتاةٌ لم تبلغ السادسة والعشرين بعد، لم ترتكب ذنباً سوى أنها وُلدت يتيمةً في بيت رجلٍ قمارٍ باعها لسداد ديونه، وأنها تجرأت على البكاء عند قبر أمها رفضاً لأن تكون جاريةً في قصر طاغية.

في فلسفة هذا العالم القاسي، كم يبدو الإنسان ضئيلاً حين يقف وحيداً أمام آلة المال والسلطة! غير أن إيزابيل لم تكن تبكي خوفاً من سيفيرو مونتالفا وحده؛ بل كانت تبكي لأنها ظنت أنها وجدت في العتمة يداً أمينةً تنتشلها،

فإذا بها تكتشف في منتصف الصحراء أن القلوب كلها قد صيغت من الطين ذاته.

رفعت إيزابيل عينيها الرطبتين ببطءٍ نحو وجه رافائيل، ذلك الرجل الذي خلع قناع السائق اللطيف وبدا في هذه اللحظة شاحباً كتمثالٍ من الرماد تحت الضوء المتراقص للفانوس. لم تعد ترى فيه ذلك المنقذ الأنيق الذي أوقف سيارته في مطر تشيواوا ليحميها، ولا الرجل الحنون الذي غطّاها بسترته الصوفية وأسمعها ألحان «لوس بانشوس»؛ بل رأت رجلاً غريباً يقف في منتصف الغرفة المغلقة، يفصل بينها وبين الموت بخطوةٍ واحدة.

حدّقت في عينيه بصفاءٍ موجعٍ لا يملك المرء أمامه إلا أن يتعرّى من كل زيفه، وتابعت بصوتٍ هادئٍ لكنه غرز خناجر خفيةً ومسمومةً في أعماق صدره:

إيزابيل: «حين طلبتُ منك ألا تتركني وحدي في تشيواوا، ظننتُ أنك الرجل الوحيد في هذا العالم الذي لن يأخذ مني شيئاً بالقوة. لم أكن أملك غير حنانك... فهل ستسلمني لهم الآن يا رافائيل؟»

سقطت كلماتها في فضاء الغرفة الضيقة كأنها حكمٌ أبديٌّ لا استئناف فيه. «لم أكن أملك غير حنانك»... أي سخريةٍ وجوديةٍ أشد إيلاماً من أن تضع ضحيةٌ كل إيمانها في حنان جلادها، وأن تمنح براءتها المطلقة لرجلٍ كان يخطط قبل ساعاتٍ لبيعها في مستودع الكيلومتر ١١٤ مقابل شطب ديونه وحفنةٍ من البيزو؟

توقف الزمن لثوانٍ ثقيلةٍ داخل الغرفة التي تملؤها رائحة الكيروسين المحترق والرطوبة المتسللة من جدران الطين. خُيّل لرافائيل أن صوت المطر في الخارج قد انقطع، وأن هدير محركات الشاحنات قد تراجع إلى خلفية بعيدة، ولم يبقَ في الكون كله سوى صدى سؤالها وهو يقرع جدران جمجمته: «فهل ستسلمني لهم الآن يا رافائيل؟»

نظر رافائيل ببطءٍ إلى يديه المعلقتين في الفراغ، تلك اليدان اللتان كانتا قبل ثلاث دقائق فقط تمتدان نحو وجنتيها بخداعٍ أنانيٍّ بارد، وتلك الأصابع التي أغلقت قفل السيارة في تشيواوا، ورفعت سماعة الهاتف في محطة الوقود لتساوم على ثمنها مع «إل بويتري»، ودفعت الرشوة في استراحة ديليسياس لتشتري صمت النادل.

وللمرة الأولى منذ سنواتٍ طويلة، شعر رافائيل بغثيانٍ حادٍّ وموجعٍ من نفسه؛ غثيانٍ يعتصر معدته وروحه معاً. تذكّر كذبته الدنيئة في استراحة ديليسياس حين أوهمها أن الطريق مقطوع، وتذكّر طلبه غرفةً واحدةً من دونيا كارمين بابتسامةٍ ماكرة، وتذكّر نظرة العجوز المحتقرة وهي تناوله المفتاح النحاسي. أدرك في تلك الثانية القاسية من المواجهة مع الذات أن براءة هذه الفتاة التي ظنّها سذاجةً سهلةً ولقمةً سائغة، كانت أصلب، وأعمق، وأنقى من كل خططه الملتوية، وأن كذبه كله لم يكن سوى قشرةٍ هشةٍ تهاوت أمام دمعةٍ واحدةٍ صادقة.

في تلك الأثناء، في البهو الأمامي المتواضع لـ «نزل الرمال»، كانت معركةٌ صامتةٌ من نوعٍ آخر قد بدأت للتو. كانت «دونيا كارمين» تقف خلف طاولتها المخشبة العالية، وقد وضعت يديها المعروقتين فوق الخشب المتآكل، بينما كانت بندقيتها القديمة ذات الفوهتين ترقد جاهزةً على الرف السفلي تحت مرمى أصابعها.

في الخارج، انعكست أضواء المصابيح اليدوية القوية عبر زجاج الباب الأمامي المغبر، وترددت أصوات أقدامٍ ثقيلةٍ تصعد درجات الشرفة الخشبية المتهالكة. كان «ماوريسيو»، كبير حراس سيفيرو مونتالفا، يتقدم رجاله

الأربعة؛ رجلٌ ضخم البنية ذو وجهٍ محفورٍ بآثار الجدري وعينين قاسيتين لا تعرفان الشفقة، يرتدي معطفاً جلدياً طويلاً مبللاً بالمطر ويحمل بندقية «وينشستر» قصيرةً بيدٍ واحدة.

أشار ماوريسيو برأسه لاثنين من رجاله ليلتفّا حول جانبي النزل نحو الفناء الخلفي، حيث كانت «الفورد غالاكسي» السوداء ترقد في الظلام خلف الجدار المتهدم، بينما تقدم هو ورجلاه الآخران نحو المدخل الرئيسي، وعيونهم تشتعل بغضب الصيادين الذين طال ليلهم في وحل مابيمي.

وفجأةً، دون إنذارٍ أو استئذان، دقّ كعب بندقيةٍ ثقيلٍ باب المدخل الرئيسي للنزل ثلاث طرقاتٍ عنيفةٍ كادت تخلع الخشب العتيق من مفصلاته الحديدية الصدئة، فتطاير الغبار من السقف واهتزت المصابيح الزيتية المعلقة على الجدران.

تردّد صوت ماوريسيو—كبير حراس مونتالفا—في الممر الطويل المفضي إلى الغرف كالرعد الغاضب وهو يصرخ بنبرةٍ تقطر تهديداً ودموية:

ماوريسيو: «افتحي يا عجوز! نعلم أن سيارةً سوداء دخلت هذا الطريق قبل ساعة. أخرجي الفتاة وإلا أحرقنا هذا النزل على رأسك!»

ارتجّ صدى الصرخة في جدران الغرفة الضيقة في نهاية الممر، فانتفض جسد إيزابيل عند زاوية السرير ووضعت يديها على فمها لتكتم شهقةً مذعورة. أما دونيا كارمين في البهو، فلم يرتجف لها جفن؛ بل صاحت بصوتٍ أجشّ صارمٍ محاولةً كسب بضع ثوانٍ ثمينة: «هذا نزلٌ للمسافرين يا سادة، ولا نؤوي هنا هاربين! تمهلوا حتى أفتح المزلاج، فالأبواب القديمة لا تُفتح بالبنادق!»

لكن ماوريسيو لم يكن ينتظر إذناً؛ فقد بدأ رجاله يضربون الباب بأكتافهم، بينما كانت أشعة مصابيح رجليه الآخرين في الخارج تقترب شيئاً فشيئاً من الفناء الخلفي حيث تختبئ السيارة السوداء.

في تلك اللحظة الفاصلة داخل الغرفة، كان رافائيل قد اتخذ قراره الأخطر؛ قراراً لم تمليه عليه حسابات التهريب، ولا خوفه على صناديق البنادق في صندوق سيارته، ولا ديونه لـ «إل بويتري»، بل أملاه عليه ذلك الشيء الغامض الذي استيقظ لتوه في صدره بعد سنواتٍ من الموت الأخلاقي. لقد أدرك أن تسليم إيزابيل يعني قتل آخر بقعة ضوءٍ في روحه، وأنه إن كان

لا بد من دفع ثمن خطاياه هذه الليلة، فليدفعه واقفاً كرجلٍ لا كسمسارٍ جبان.

التفت رافائيل سريعاً نحو السرير، فأمسك بمعطف إيزابيل العاجي الفاتح الذي كان يلمع في العتمة وقد يفضح مكانهما لأي شعاع ضوء، وطواه بسرعةٍ تحت ذراعه، ثم التفت نحو الطاولة الصغيرة في الزاوية حيث كان الفانوس النحاسي يتأرجح بشعلته الصفراء.

لم يبحث عن قطعة قماشٍ ليطفئه، ولم ينتظر أن ينفخ فيه؛ بل هوى بكفّه العارية مباشرةً فوق زجاج الفانوس وفتيله المشتعل، فأطفأ الفانوس النحاسي بكفّه قبل أن تتسرب شرارة ضوءٍ واحدةٍ من تحت عتبة الباب الخشبي إلى الممر! لسعت النار باطن يده بقسوةٍ وأحرقت جلده، لكنه لم يطلق أنيناً واحداً، بل ابتلع الألم بصمتٍ صلبٍ وهو يغرق الغرفة في ظلامٍ دامسٍ كثيف.

في العتمة المطلقة التي ابتلعت معالم الغرفة، لم يعد يُسمع سوى صوت قطرات المطر على السقف الطيني، وصوت تحطم مزلاج الباب الرئيسي في البهو

البعيد، متبوعاً بصيحات ماوريسيو الغاضبة ووقع الأحذية الثقيلة وهي تبدأ باقتحام الممر الطويل، تقترب خطوةً بعد خطوةٍ نحو غرفتهما.

تحرك رافائيل في الظلام بخفة نمرٍ يعرف تضاريس الليل، واقترب من زاوية السرير حيث كانت إيزابيل ترتجف بصمت. انحنى فوقها، وأحاط كتفيها بذراعه اليسرى ليطمئنها، بينما كانت يده اليمنى المحروقة تقبض على مسدسه الأسود بثباتٍ لا يلين.

مال برأسه في العتمة، وهمس في أذنها بصوتٍ منخفضٍ عميق، صوتٍ لم يبقَ فيه أي أثرٍ للغواية أو الخداع أو اللطف المصطنع، بل عزمٌ غريبٌ وصلبٌ لم يعرفه رافائيل في نفسه من قبل:

رافائيل: «لن يمسّوا شعرةً من رأسكِ... حتى لو دفعنا ثمن هذه الليلة من دمنا.»

في تلك اللحظة، ومع انعكاس أول شعاع مصباحٍ يدويٍّ يتسلل من تحت شق الباب الخشبي في نهاية الممر، أدرك الاثنان في صمتٍ مشتركٍ أن عهد الخداع قد انتهى، وأن المعركة الحقيقية للنجاة من جحيم مابيمي قد بدأت للتو.

الفصل السادس: تحت ألواح الخشب المبتلة

نزل الرمال — القبو السري تحت مطبخ الطين | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٠١:١٢ بعد منتصف الليل

«في العتمة المطلقة، حيث تفقد العيون قدرتها على الخداع وتنطفئ الفوانيس التي تجمّل الوجوه، لا يعود للإنسان ما يختبئ خلفه سوى نبض قلبه؛ هناك فقط ينكشف المعدن الحقيقي للأرواح، إما خوفٌ يبيع صاحبه، أو صدقٌ يولد من رحم الفناء.»

لم تمضِ عشر ثوانٍ ثقيلةٍ على انطفاء الفانوس النحاسي تحت كفّ رافائيل المحروقة، حتى خُيِّل لمن في الغرفة أن الظلام قد صار كائناً حياً يتنفس معهما في تلك المساحة الضيقة، يلفّهما بعباءةٍ من السكون المشحون بالرعب والترقب. كان قلب إيزابيل يقرع أضلاعها بعنف، وأنفاسها تتعثر في حلقها الجاف، بينما كانت أصابع رافائيل تقبض على مسدسه الأسود في العتمة، مستعداً لمواجهة الرصاص عند عتبة الباب.

وفجأة، انفتح الباب الخشبي بهدوءٍ مريبٍ لم يصدر عنه صريرٌ واحد، كأن يداً خبيرةً تعرف كيف تروّض المفصلات الصدئة دون أن توقظ الليل. تسللت إلى الداخل «دونيا كارمين» كطيفٍ أسود خارجٍ من جدران الطين، تحمل بين ثنيات شالها الصوفي الأسود مصباحاً زيتياً صغيراً للغاية، لا يكاد يرسل إلا خيطاً شاحباً من الضوء يكفي لتمييز ملامح الوجوه دون أن يتسرب من تحت الأبواب أو عبر شقوق النوافذ.

لم تنطق العجوز بكلمةٍ واحدة؛ ففي حضرة الموت يصبح الكلام رفاهيةً قاتلة، وتغدو الإشارة أبلغ من كل اللغات. رفعت يدها المعروقة وأشارت بعينيها الثاقبتين إليهما أن يخلعا حذاءيهما الملطخين بالوحل فوراً، وأن يتبعاها حفاةً عبر الرواق الخلفي الضيق نحو مطبخ الطين في مؤخرة النزل.

انحنى رافائيل بسرعةٍ فخلع حذاءه الجلدي وحمل حذاء إيزابيل الصغير بيده اليسرى، بينما أمسك بيدها اليمنى المرتجفة ليقودها خلف العجوز التي كانت تتحرك في الظلام بخفةٍ مذهلةٍ لا تتناسب مع سنواتها الأربع والخمسين.

سار الثلاثة حفاةً فوق الأرضية الطينية الباردة، تلسع برودة الرطوبة باطن أقدامهم كما تلسع الحقيقة قلوب الغافلين. كان الرواق الخلفي ضيقاً ومعوجاً،

تفوح منه رائحة الرماد البارد، والفلفل المجفف المعلق في السقف، والطوب اللبن الذي تشبّع بمطر تشرين، بينما كان هدير ضربات البنادق على باب الواجهة يتردد في أرجاء النزل كرعدٍ غاضبٍ يقترب من الانفجار.

حين بلغوا مطبخ الطين المعتم في أقصى المبنى، أطفأت دونيا كارمين مصباحها الصغير بنفخةٍ خاطفة، وانحنت نحو الزاوية البعيدة خلف موقد الحطب المطفأ. سحبت العجوز بساطاً صوفياً ثقيلاً منسوجاً يدوياً عن الأرض، فانكشف تحته بابٌ خشبيٌّ سريٌّ مدمجٌ في الأرضية، تتوسطه حلقةٌ حديديةٌ صدئةٌ أكلتها الرطوبة والسنون.

كان ذلك المخبأ إرثاً قديماً تركه زوجها الراحل أيام الاضطرابات والثورات في ريف الشمال؛ حيث اعتاد أن يخبئ تحته براميل «المسكال» المعتق ومؤونة الشتاء كلما داهمت القرى عصابات قطاع الطرق أو جباة الضرائب الفيدراليون. لم يخطر ببال أحدٍ يوماً أن هذا القبو الصغير الذي صُنع لحفظ الخمر من النهب، سيصبح الليلة رحماً ترابياً يحمي روحين هاربتين من براثن سيفيرو مونتالفا.

رفعت دونيا كارمين الغطاء الخشبي الثقيل بكل ما تبقى في ذراعيها النحيلتين من عزم، وأشارت إلى سلمٍ حجريٍّ ضيقٍ ينحدر عمودياً نحو حفرةٍ معتمةٍ تفوح منها رائحة التراب الرطب، والخشب المتعفن، والخل المعتق.

التفتت العجوز نحو رافائيل في تلك الثانية الفاصلة، وحدّقت في عينيه بنظرةٍ صارمةٍ تخترق الظلام، ثم همست بصوتٍ حادٍّ ومبحوحٍ يشبه فحيح الريح بين الصخور:

دونيا كارمين: «انزل معها الآن ولا تصدر نفساً. إذا وجدوا سيارتك خلف الإسطبل فسأقول إن السائق باعها لي وفرّ سيراً في العاصفة. إياك أن تدعها تبكي بصوتٍ مسموع!»

أومأ رافائيل برأسه في صمتٍ يملؤه الامتنان والإجلال لتلك المرأة التي تضع رقبتها تحت سكين رجال مونتالفا من أجل غريبين لم تعرفهما إلا منذ أقل من ساعة.

نزل رافائيل أولاً على الدرجات الحجرية الزلقة، متناسياً ألم الحرق الذي يلسع باطن كفه اليمنى كلما لامس الجدار الرطب، ثم وقف في قاع الحفرة ورفع

ذراعيه في العتمة ليلتقط إيزابيل من خصرها برفقٍ متناهٍ، وينزلها ببطءٍ إلى الأرضية الطينية الباردة دون أن تصدر قدمها صوتاً واحداً.

ما إن استقرت قدما إيزابيل على التراب الرطب، حتى أُغلق اللوح الخشبي الثقيل فوق رأسيهما بصوتٍ مكتوم، وتبعه صوت سحب البساط الصوفي الكثيف فوق الألواح ليخفي أي أثرٍ للفتحة. في تلك اللحظة، انقطع آخر خيطٍ يربطهما بالعالم العلوي، وغرقا في عتمةٍ كاملةٍ كثيفةٍ لا يتسرب إليها خيطُ نورٍ واحد، وامتزج أنين الريح البعيد في صحراء مابيمي بقرع باب الواجهة الرئيسي الذي انخلع أخيراً بضربة قدمٍ غاضبةٍ أعلنت بدء الاستباحة.

كانت المساحة في القبو ضيقةً ومخنوقةً إلى حدٍّ يجعل التنفس نفسه عبئاً ثقيلاً؛ جدرانٌ من الطين البارد تحيط بهما من كل جانب، وبرميلان خشبيان ضخمان تفوح منهما رائحة الخل المعتق والخشب المبلل يحتلان معظم الفراغ، فلم يبقَ لهما إلا حيزٌ ضيقٌ للغاية بين البرميلين، بحيث التصق ظهر إيزابيل بصدر رافائيل تماماً، وشعرت بأنفاسه الدافئة تلامس أعلى رأسها بينما كانت قطرات الماء المتساقطة من سقف القبو تقطر ببطءٍ رتيبٍ في زاوية الحفرة.

فوق رأسيهما مباشرة، لم تفصلهما عن الموت سوى ألواح خشبٍ متآكلةٍ وبساطٍ صوفيٍّ رطب. انطلقت في البهو والممرات خطوات أربعة رجالٍ يضربون الموائد الخشبية بأعقاب بنادقهم، ويحطمون الأواني الفخارية بعنف، ويفحصون الغرف بجنون الصيادين الذين يخشون غضب سيدهم إذا عادوا خالي الوفاض.

سمع الاثنان بوضوحٍ مرعبٍ صوت باب غرفتهما السابقة وهو يُركل بعنف، تلاه صوت تمزيقٍ حادٍّ ومخيف لنصل سكينٍ يمزق حشية السرير القشية الذي تركاه منذ دقائق معدودة، ثم ارتطام الخزانة الخشبية بالأرض وهي تُقلب رأساً على عقب. كان الغضب في الأعلى وحشياً لا يرحم، وكأن رجال مونتالفا يبحثون عن فريستهم في كل شقٍّ وظل.

تقدمت خطوات «ماوريسيو» الثقيلة نحو المدخل الفاصل بين البهو والمطبخ، وتوقف عند الطاولة المخشبة حيث كانت دونيا كارمين تقف كشجرة صبارٍ عتيقةٍ لا تنحني للعواصف. ألقى ماوريسيو بشعاع مصباحه الكاشف في وجه العجوز، فالتقطت عيناه القاسيتان تفاصيل لم تفت عليه؛ لقد رأى على الطاولة آثار فنجانين ما زالا يحتفظان ببقايا دفء القهوة، ولمح عند العتبة طرف معطفٍ نسائيٍّ مبللٍ سقط سهواً أثناء انسحابهم السريع.

زمجر ماوريسيو بصوتٍ أجشّ يقطر تهديداً ودموية، وهو يقرب فوهة بندقيته من صدر العجوز:

ماوريسيو: «فنجانان من القهوة الساخنة على الطاولة يا عجوز... ومعطفٌ نسائيٌّ مبللٌ عند العتبة! أين خبأتِ العصفورة؟»

لم يرتجف رمشٌ واحد في عيني دونيا كارمين، ولم تتراجع خطوةً واحدةً إلى الوراء رغم أن فوهة البندقية كانت تلامس شالها الأسود. رفعت ذقنها بشموخ امرأةٍ لم يعد في الدنيا ما تخسره، وأجابته بصوتٍ صلبٍ باردٍ كصخر الجبال:

دونيا كارمين: «هذا نزل مسافرين لا ثكنة عسكر. مرت هنا امرأةٌ تشكو البرد مع سائقٍ قبل ساعة، دفعا ثمن الشاي ومضيا حين سمعا أن رجالاً يفتشون الصحراء. وإن كنتَ تظن أن الصراخ يخيف امرأةً دفنت ابنها عام واحدٍ وسبعين، فأنت لا تعرف من هي كارمين!»

لم يحتمل ماوريسيو تلك الكبرياء التي صفعت غروره أمام رجاله؛ فهوى بيده الضخمة على وجه العجوز في صفعةٍ قاسيةٍ مدويةٍ ارتجّ لها سكون المطبخ، وتبعها صوت ارتطام جسدها النحيل بحافة الطاولة الخشبية وهي تسقط أرضاً دون أن تطلق صرخة استغاثةٍ واحدة.

في القبو المعتم تحت الخشب مباشرة، اخترق صوت الصفعة وسقوط العجوز قلب إيزابيل كخنجرٍ مسموم؛ فجفلت بقوةٍ وعنفٍ وكادت تطلق شهقة بكاءٍ مذعورةٍ تفضح مكانهما وتُهدر تضحية تلك المرأة الشجاعة.

في تلك اللحظة الفاصلة، تحرك رافائيل بغريزةٍ لم يعرفها في حياته قط؛ لفّ ذراعيه حول كتفيها المرتجفتين برفقٍ عميقٍ وحنانٍ صادق، ووضع ذقنه برقةٍ على شعرها المبلل بماء المطر، ثم أخذ يدها اليمنى المرتجفة وضمّها بقوةٍ هادئةٍ إلى صدره مباشرةً فوق موضع قلبه، كي تشعر بانتظام نبضه الثابت لا بهلعه، وتستمد من سكونه قوةً تكبح جماح خوفها.

لم تكن قبضته هذه المرة قبضة صيادٍ يطلب جسداً في غرفةٍ مغلقة، ولا يد مهربٍ يساوم على ثمن بضاعةٍ بشرية؛ بل تحول جسده كله في تلك الحفرة

المظلمة إلى درعٍ بشريٍّ يرتجف خوفاً عليها وحدها، وملاذٍ أخيرٍ يحميها من قسوة العالم.

شعرت إيزابيل بدفء صدره يتسلل عبر ملابسها الرطبة ليبدد صقيع القبو، وأحست بنبض قلبه الهادئ تحت كفها المرتجفة وكأنه إيقاعٌ مطمئنٌ وسط عاصفةٍ هوجاء. أغمضت عينيها في العتمة المطلقة، وأسندت رأسها إلى كتفه باستسلامٍ كامل، وهمست بأضعف صوتٍ يمكن أن يخرج من حنجرةٍ مبللةٍ بالخوف والدموع، وهي تشدّ بأصابعها على يده داخل الظلام:

إيزابيل: «قلبي يدق عالياً جداً يا رافائيل... أخشى أن يسمعوه من تحت الخشب.»

أغمض رافائيل عينيه هو الآخر، وقد غسل الألم والندم كل ما علق بروحه من خبث السنوات الماضية، وهمس في أذنها بصوتٍ خفيضٍ دافئٍ يشبه صلاةً تُتلى في محرابٍ سري:

رافائيل: «تنفسي على إيقاع أنفاسي يا إيزابيل. لن أدعهم يأخذونكِ مني أبداً... هذه المرة أعدكِ بالصدق الوحيد الذي بقي في حياتي.»

كانت تلك الكلمات البسيطة هي أول حقيقةٍ عاريةٍ ينطق بها رافائيل منذ دخلت حياته في محطة تشيواوا؛ حقيقةٌ لم يُمْلِها الطمع ولا الغواية، بل ولدتها لحظةٌ إنسانيةٌ خالصة، أدرك فيها أن إنقاذ هذه الروح البريئة هو السبيل الوحيد لإنقاذ ما تبقى من إنسانيته الضائعة.

مرت عشر دقائق بطيئةٍ ثقيلةٍ بدت في حسابات الخوف كأنها عشر سنواتٍ كاملة؛ عشر دقائق كان الزمن فيها يزحف كأفعى فوق ألواح الخشب المبتلة. في منتصف تلك الدقائق العصيبة، انفتح باب مطبخ الطين في الأعلى بعنف، ودخل أحد حراس ماوريسيو حاملاً مصباحاً كاشفاً يمسح الزوايا والأركان.

توقفت أنفاس إيزابيل ورافائيل تماماً حين اقترب وقع الحذاء الثقيل الملطخ بالوحل حتى وقف مباشرةً فوق البساط الصوفي الذي يغطي باب القبو السري! كان صوت احتكاك نعل الحذاء بالصوف الرطب يرنّ في أذنيهما كأنه قرع طبول الموت، وارتفع فوق رأسيهما صوت كعب البندقية وهو يضرب الأرضية الخشبية بضربتين متتاليتين لاختبار صلابتها.

ضغط رافائيل بيده برفقٍ على فم إيزابيل ليكتم أنفاسها، بينما أطبقت هي بكلتا يديها على ذراعه، وتصلّب جسداهما كتمثالين من حجر في قلب العتمة، لا يفصل بينهما وبين فوهة البندقية سوى بضع بوصاتٍ من الخشب القديم.

انحنى الحارس في الأعلى ببطء، وأمسك بطرف البساط الصوفي المبلل ليرفعه بدافع الفضول والريبة، متسائلاً عن سبب وجود هذا البساط السميك في زاوية مطبخٍ طينيٍّ مهمل. في تلك الثانية الحاسمة، امتدت يد رافائيل اليمنى في الظلام لتتحسس مقبض مسدسه الأسود، مستعداً لإطلاق النار عبر الخشب إذا كُشف الغطاء، حتى لو كان ذلك يعني نهايتهما معاً.

لكن القدر في صحراء مابيمي كان قد كتب سطراً آخر لتلك الليلة؛ فقبل أن يرفع الحارس البساط بإنشٍ واحد، اخترق سكون الليل صياحٌ عالٍ ومبتهجٌ صادرٌ من أحد الحراس في الفناء الخلفي للنزل، وهو يركض نحو الواجهة ويصرخ بأعلى صوته:

«سيدي ماوريسيو! لقد وجدناها! الفورد غالاكسي السوداء مخبأةٌ خلف حظيرة البغال... وغطاء محركها لا يزال دافئاً كأنه توقف منذ دقائق!»

انفجر الفناء الخارجي بصيحات الغضب والانتصار، واندفع الحارس الذي كان يقف فوق البساط الصوفي خارجاً من المطبخ بأقصى سرعته ليلحق برفاقه في الخلف، بينما دوّى صوت ماوريسيو الأجش في الممر وهو يأمر رجاله بمحاصرة حظيرة البغال وتمشيط الكثبان المحيطة بالنزل بحثاً عن آثار أقدامٍ هاربة.

في القبو المعتم، زفر رافائيل نفساً طويلاً حابساً، وأرخى قبضته عن فم إيزابيل التي ارتمت برأسها على صدره وهي تلهث بصمت. أدرك رافائيل في تلك اللحظة أن اكتشاف سيارته خلف الإسطبل قد منحهم بضع دقائق فقط من الفوضى في الفناء الخلفي، لكنه في الوقت ذاته يعني أن رجال مونتالفا سيعودون لتفتيش كل شبرٍ في النزل وحرقه إذا لم يجدوهما في الخارج، وأن «الفورد غالاكسي»—التي تحمل في صندوقها البنادق المهربة وتعتبر وسيلة هروبهما الوحيدة في قلب هذه الصحراء القاتلة—قد أصبحت الآن محاصرةً بأربعة مسلحين.

شدّ رافائيل على يد إيزابيل في الظلام، وهمس بعزمٍ حاسمٍ يسبق العاصفة:

«لقد وجدوا السيارة... لكنهم جميعاً الآن في الفناء الخلفي. إذا بقينا هنا فسيحرقون النزل فوق رؤوسنا. استعدي يا إيزابيل... سنخرج الآن وندفع في قلب العاصفة لنستعيد سيارتنا قبل أن يدركوا أننا كنا تحت أقدامهم طوال الوقت!»

الفصل السابع: الاندفاع في قلب العاصفة

نزل الرمال — الفناء الخلفي ومشارف وادي الصبار | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ١:٢٥٠ بعد منتصف الليل

«في اللحظة التي يشتعل فيها الحريق تحت المطر، يسقط الحياد عن كل الأشياء؛ فلا يعود الظلام مخبأً للجبناء، بل مضماراً عارياً يتسابق فيه الموت والحياة على عجلاتٍ من طينٍ ونار.»

ما إن اندفع الحراس نحو الفناء الخلفي للنزل لتفقد السيارة المخبأة خلف حظيرة البغال، حتى تحوّل الصمت الثقيل في القبو المعتم إلى سباقٍ محمومٍ مع الثواني. لم يكن لدى رافائيل متسعٌ للتردد؛ ففي صحراء مابيمي، لا تُمنح الفرص مرتين لمن يقفون على حافة الهاوية.

تحسّس في الظلام الدامس الجدار الطيني الرطب أعلى البرميلين الخشبيين، حتى بلغت أصابعه المحروقة إطار فتحة التهوية الجانبية الضيقة للقبو؛ تلك الكوّة المنخفضة المغطاة بشبكةٍ خشبيةٍ متآكلةٍ تطل مباشرةً على سقيفة الحطب خلف مطبخ الطين. دفع الشبكة بكتفه في صمتٍ حذرٍ فانخلعت من

مكانها دون ضجيج، وتسلل من خلالها هواء الليل البارد محملاً برائحة المطر والطين المحروث.

زحف رافائيل خارجاً وسط الطين والظلام كحيوانٍ بريٍّ يستعيد حريته من جوف الأرض، ثم استدار على ركبتيه ومدّ يديه إلى الأسفل ليساعد إيزابيل على الصعود. خرجت الفتاة صامتةً مثل ظلٍّ عاجيٍّ شاحبٍ وسط المطر المنهمر، تلتصق ملابسها المبللة بجسدها النحيل، وعيناها الواسعتان تعكسان وميض البرق البعيد كأنهما مرآتان تبحثان عن خلاصٍ وسط الطوفان.

انحنى الاثنان خلف أكوام الحطب الرطبة المكدسة تحت السقيفة، يلتقطان أنفاسهما المتلاحقة بينما كانت قطرات المطر التشريني تضرب رؤوسهما بلا رحمة. من خلال الشقوق الضيقة بين جذوع الخشب، مسح رافائيل الفناء الخلفي بنظرة صيادٍ يزن الموت بالحساب الدقيق.

كان المشهد مشحوناً بالخطر؛ اثنان من رجال مونتالفا يقتربان ببطءٍ وحذر، رافعين مشاعل يدويةً ومصابيح كاشفةً نحو «الفورد غالاكسي» السوداء الجاثمة خلف حظيرة البغال، بينما وقف حارسٌ ثالثٌ عند زاوية المبنى يراقب باب النزل الأمامي والممر الجانبي، وبندقيته مشرعةٌ في وضع

الاستعداد. أما «ماوريسيو»، كبير الحراس، فكان يصرخ بأوامره الغاضبة من عند مدخل البهو، يستعجل رجاله لتفتيش السيارة والبحث في محيط الإسطبل.

وفي تلك اللحظة الحرجة، عند عتبة الباب الأمامي للنزل، وقفت «دونيا كارمين» وشفتها تنزف خيطاً رفيعاً من الدم أثر صفعة ماوريسيو؛ لكن العجوز الصلبة لم تنكسر، بل تعمدت أن تتعثر بمقعدٍ خشبيٍّ ثقيلٍ وتسقطه أرضاً بصوتٍ مدوٍّ وهي تشتم الرجال بصوتٍ أجشّ، فالتفت الحارس الثالث برأسه نحوها لثوانٍ معدودةٍ كانت كافيةً ليتحرك رافائيل في العتمة.

أدرك رافائيل أن الاشتباك المباشر مع أربعة مسلحين في ساحةٍ مكشوفةٍ يعني الموت المحقق لإيزابيل قبل أن تخطو خطوتين نحو السيارة؛ فالرصاص لا يميز بين البراءة والذنب في ليل الصحراء. كان لا بد من خلق وهمٍ يسرق أبصارهم وعقولهم ولو لعشر ثوانٍ فقط.

وقعت عيناه على صفيحة كيروسين معدنيةٍ صدئةٍ ملقاةٍ قرب الموقد الطيني الخارجي الذي تستخدمه العجوز للخبز. أشار لإيزابيل بإصبعه على شفتيه أن تبقى جامدةً خلف الحطب، ثم زحف على بطنه ومرفقيه وسط الوحل اللزج

من خلف حظيرة التبن المقابلة، يتحرك كأفعى سوداء لا يُسمع لها حفيفٌ وسط هدير المطر.

حين بلغ كومة القش الجاف المكدسة تحت مظلة الحظيرة الخشبية بعيداً عن رذاذ السماء، فتح غطاء الصفيحة وسكب السائل الشفاف بغزارةٍ فوق الأعشاب اليابسة، فتصاعدت رائحة الكيروسين النفاذة لتختلط برائحة الطين المبلل. أخرج رافائيل علبة ثقابٍ مبللةٍ من جيبه، وأشعل عود ثقابٍ واحداً انبثقت منه شعلةٌ زرقاء صغيرة تقاوم الريح، وألقاه في قلب القش المبلل بالوقود، ثم قفز مسرعاً لينبطح مع إيزابيل خلف جدار الطوب المنخفض الفاصل بين السقيفة والفناء.

في أقل من ثانيتين، انفجرت ألسنة اللهب الصفراء والحمراء فجأةً في السماء الممطرة كأن تنيناً نارياً قد استيقظ من تحت الرمال! التهمت النار كومة القش الجاف بشراهةٍ مرعبة، وتصاعد عمودٌ كثيفٌ من الدخان الأسود والشرار المتطاير ليضيء الفناء الخلفي كله بوهجٍ برتقاليٍّ متراقصٍ يبدد ظلمة الليل.

وفي داخل الحظيرة المجاورة، أصاب الذعر بغلين مربوطين فارتفع صهيلهما الحادّ كصرخة استغاثةٍ تمزق سكون الصحراء، وحطّما بسنابكهما العارضة الخشبية الضعيفة ليركضا في الظلام بجنونٍ وسط سحب الدخان الكثيفة.

انطلت الخدعة على الحراس تماماً، فقد التفت الرجال مذهولين نحو الحظيرة المشتعلة، وظنوا للوهلة الأولى أن الهاربين قد أضرموا النار ليفروا خلف ستار الدخان والحيوانات الهائجة. صاح أحدهم مشيراً ببندقيته نحو ألسنة اللهب، واندفع الثلاثة مسرعين نحو الحظيرة المشتعلة، تاركين «الفورد غالاكسي» السوداء وحيدةً في الظل على بُعد عشرين خطوةً فقط!

في فلسفة المعارك اليائسة، لا تُقاس اللحظة الفاصلة بالساعات، بل بنبضة قلبٍ واحدةٍ تفصل بين التردد والاندفاع. وفي تلك الفوضى النارية الخاطفة، بينما كانت ألسنة اللهب ترقص في السماء وتخطف أبصار رجال مونتالفا، انتفض رافائيل من خلف جدار الطوب المنخفض، وأمسك بيد إيزابيل بقوةٍ حازمة، وركضا حافيي القدمين بأقصى سرعةٍ يملكانها عبر الفناء الموحل نحو الغالاكسي السوداء.

كانت أقدامهما تغوص في الطين اللزج مع كل خطوة، وقطرات المطر تصفع وجوههما كالإبر، لكن الخوف من العودة إلى قبضة سيفيرو مونتالفا منح إيزابيل أجنحةً لم تعرفها من قبل. بلغ رافائيل باب الراكب أولاً، ففتحه بعنفٍ ودفع إيزابيل إلى الداخل برفقٍ مستعجل، ثم دار حول مقدمة السيارة المعدنية الطويلة كالبرق، وقفز إلى مقعد القيادة مغلقاً الباب الثقيل خلفه في اللحظة ذاتها التي بدأ فيها الدخان يتبدد عن الحظيرة المحترقة.

التفت رافائيل نحو إيزابيل التي كانت تلهث بشدةٍ وتضم لفافتها القماشية وشال أمها إلى صدرها، وصاح بصوتٍ حاسمٍ يقطر قلقاً وحماية:

رافائيل: «انبطحي تحت مستوى المقعد حالما نتحرك! لا ترفعي رأسكِ مهما سمعتِ!»

أدار المفتاح في قفل التشغيل بقوة، فزأر المحرك الثماني الأسطوانات زئيراً جباراً هزّ السكون الصحراوي وأيقظ الوحش المعدني الكامن تحت الغطاء الأسود. وبذكاء رجلٍ خبر الكمائن الليلية، ترك رافائيل المصابيح الأمامية مطفأةً تماماً حتى لا يكشف مساره للبنادق المتربصة، وضغط بكل ثقله على دواسة الوقود.

دارت الإطارات الخلفية بجنونٍ في الوحل، قاذفةً كتل الطين والحصى في الهواء قبل أن تتماسك مع الأرض وتندفع السيارة كقذيفةٍ سوداء نحو الخلف. لم يكن هناك طريقٌ ممهدٌ للهرب، فصوّب رافائيل مقدمة الفورد الثقيلة مباشرةً نحو البوابة الخشبية الخلفية للسياج الترابي، فحطمتها المقدمة الفولاذية كأنها ورقةٌ يابسة، وتطايرت ألواح الخشب المكسورة في الهواء بينما انطلقت السيارة نحو الفضاء الصحراوي المفتوح.

لم يدرك رجال مونتالفا الخديعة إلا حين سمعوا زئير المحرك الثماني الأسطوانات وصوت تحطم البوابة الخشبية خلفهم. استدار «ماوريسيو» في الفناء المشتعل ووجهه يتوهج بغضبٍ شيطانيٍّ تحت ضوء النيران، ورفع بندقيته وهو يصرخ بأعلى صوته:

ماوريسيو: «إنهم في السيارة! أطلقوا النار على الإطارات! لا تدعوها تخرج من الوادي!»

تتابعت أربع طلقاتٍ حارقةٍ مزّقت سكون الليل الممطر كصواعق من الرصاص والنار؛ اخترقت رصاصتان صندوق السيارة المعدني الخلفي بصريرٍ

حادٍّ ارتطم بصناديق البنادق المهربة المخبأة في الداخل دون أن تنفجر، بينما أصابت الرصاصة الثالثة الزجاج الخلفي فتهشم في لحظةٍ واحدةٍ إلى آلاف الشظايا المتلألئة التي انهمرت كالمطر الحادّ فوق المقاعد الجلدية وكتف رافائيل الأيسر.

صرخت إيزابيل برعبٍ وهي تغطي وجهها ورأسها بيديها في المقعد المنخفض أسفل لوحة القيادة، بينما اخترقت شظايا الزجاج الحادة معطف رافائيل الصوفي المبلل لتغرز أنيابها في لحم كتفه الأيسر. شعر رافائيل بحرقةٍ ساخنةٍ ولاذعةٍ تسيل تحت سترته الممزقة وتبلل قميصه ببطء، لكنه لم يرفع قدمه عن دواسة الوقود قيد أنملة؛ فالتباطؤ في هذه اللحظة يعني الموت المحقق.

وفي حركةٍ غريزيةٍ لم يكن فيها أي حسابٍ للنجاة الفردية، مدّ رافائيل ذراعه اليمنى القوية ليحمي رأس إيزابيل وعنقها فوق المقعد الأوسط، يضغط برفقٍ على كتفيها ليبقيها بعيدةً عن مرمى الرصاص والزجاج المتطاير، بينما كان يقود السيارة الثقيلة بيده اليسرى وحدها عبر الظلام الدامس المضاء فقط بومضات البرق المتقطعة التي تشق سماء مابيمي.

كانت القيادة في تلك العتمة أشبه بالسير على حافة هاويةٍ معصوب العينين؛ العجلات تنزلق فوق الطين الرطب، والرياح تعصف عبر الزجاج الخلفي المحطم، ورائحة البارود تختلط برائحة الدم والمطر داخل المقصورة.

رفعت إيزابيل رأسها قليلاً تحت ذراعه الممدودة لحمايتها، فلامست أصابعها المرتجفة ساعده الأيمن وكمّ سترته المبلل؛ لم يكن ذلك بلل المطر البارد هذه المرة، بل سائلٌ دافئٌ لزجٌ يتدفق بصمتٍ في الظلام. اتسعت عيناها بذهولٍ وألمٍ وهي تتحسس الدم الدافئ على ذراعه وكتفه، نفرج صوتها مبحوحاً يمزقه الخوف والامتنان:

إيزابيل: «أنت تنزف يا رافائيل! الزجاج... لقد أصابوك!»

لم ينظر إليها رافائيل، بل ظلت عيناه الداكنتان معلقتين بالأفق المظلم أمامه، يقرأ تضاريس الأرض مع كل ومضة برقٍ خاطفةٍ تضيء أشجار الصبار والصخور المتناثرة، وأجاب بصوتٍ هادئٍ صلبٍ يحاول أن يبدد رعبها رغم الألم الذي يعتصر كتفه:

رافائيل: «مجرد خدشٍ من الزجاج يا صغيرتي... تمسكي بي جيداً، سنعبر الوادي قبل أن يلحقوا بنا.»

في تلك اللحظة، التفتت إيزابيل بنظرةٍ خاطفةٍ عبر الإطار الفارغ للزجاج الخلفي المحطم، فانقبض قلبها بعنف؛ في الخلف، عند أطراف «نزل الرمال» الذي كان يتوهج بنيران الحظيرة المشتعلة، أضاءت كشافات الشاحنتين الترابيتين بقوةٍ قاسيةٍ تخترق ستائر المطر والظلام، واندفعتا عبر البوابة المحطمة بأقصى سرعةٍ تزمجر محركاتهما كوحشين جريحين يطاردان فريستهما.

بدأت المطاردة الحقيقية فوق طرق مابيمي الموحلة المتعرجة، حيث تتحول الرمال إلى نخاخٍ لزجة، وتصبح كل حفرةٍ مخبأةً تحت المياه موتاً محتماً أو انقلاباً قاتلاً. ضغط رافائيل على دواسة الوقود أكثر فأكثر، تئنّ «الفورد غالاكسي» تحت وطأة السرعة والوحل وهي تتجه مباشرةً نحو الممر الضيق لـ «وادي الصبار»، بينما أدرك الاثنان في صمتٍ مشتركٍ أن هذا الليل الطويل قد دخل فصله الأكثر دمويةً، وأن الفجر لا يزال بعيداً جداً عن صحراء الظلال.

الفصل الثامن: مطاردة وادي الصبار

أعالي وادي الصبار — مشارف الهضبة الصخرية | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٠١:٤٠ بعد منتصف الليل

«في المطاردة الكبرى، لا ينجو الأسرع دائماً، بل ينجو من يملك الشجاعة ليطفئ أنواره في اللحظة التي يظن فيها الصيادون أن الضوء هو السبيل الوحيد للحياة، ومن يدرك أن الاختباء في حضن الهاوية قد يكون أرحم من الوقوف مكشوفاً على القمة.»

كان الطريق المتعرج الصاعد نحو «هضبة الصبار» ضيقاً كحافة سكينٍ صدئةٍ شُحذت على حجر الليل؛ عن يمينه جدارٌ صخريٌّ مسنّنٌ يقطر ماءً داكناً كأنه جبهة عملاقٍ يعبس في وجه العابرين، وعن يساره هاويةٌ سحيقةٌ بلا قاع، تبتلعها سيول المطر المتجمعة في بطن الوادي وتزأر في أعماقها كأنهارٍ غاضبةٍ استيقظت من سبات الجفاف.

في تلك اللحظة، لم تعد «الفورد غالاكسي» السوداء مجرد آلةٍ معدنيةٍ فاخرة، بل صارت كائناً جريحاً يلهث فوق الطين اللزج، يقاتل الجاذبية والوحل

والظلام في آنٍ واحد. انزلقت مؤخرة السيارة الثقيلة مرتين بعنفٍ فوق المنحدرات الطينية الزلقة، حتى كادت عجلتها الخلفية اليسرى تلامس الفراغ المعلق فوق الهاوية، فتطايرت الحجارة الصغيرة من تحت الإطارات لتهوي بصمتٍ طويلٍ في جوف الوادي المظلم.

لكن رافائيل كان يدير المقود ببرود سائقٍ أمضى عشرين عاماً يقرأ تعرجات الليل دون خريطة؛ رجلٍ تعلّم في مدارس التهريب والخطر أن الذعر هو العدو الأول خلف المقود، وأن السيارة لا تطيع اليد المرتجفة بل تطيع القلب الذي يساكن العاصفة. كانت أصابع يده اليمنى تقبض على الخشب المصقول للمقود بإحكامٍ صلب، بينما تتدلى يده اليسرى المصابة ببطء، ينزف منها خيطٌ دافئٌ يصبغ كمّ قميصه بلون الحقيقة.

خلفهما، لم تكن الصحراء تنوي منحهما هدنة؛ فقد بدت أنوار الشاحنتين الترابيتين تقترب بسرعةٍ مرعبةٍ تشق ستائر المطر كعيون وحوشٍ أسطورية، لأن محركاتهما رباعية الدفع تلتهم الحجارة والمنحدرات بوحشيةٍ لا تعرف التردد. كان «ماوريسيو» ورجاله يضغطون على المحركات بلا رحمة، يدركون أن إفلات الفريسة في وادي الصبار يعني عودتهم خالي الوفاض لمواجهة غضب دون سيفيرو مونتالفا.

وفجأةً، اخترقت طلقاتٌ متفرقةٌ الظلام الكثيف من نافذة الشاحنة الأمامية، تمزق هدير المطر بصفيرٍ حادٍّ قاتل؛ ارتطمت الرصاصات بالصخور المسننة على جانب الطريق عن يمينهما، فأطلقت شراراتٍ برتقاليةً خاطفةً في المطر كأنها نجومٌ صغيرةٌ تولد وتموت في جزءٍ من الثانية، وتناثرت شظايا الحجر فوق غطاء المحرك الأسود.

انكمشت إيزابيل في مقعدها المنخفض، تضم لفافتها القماشية وشال والدتها إلى صدرها بكلتا يديها، وعيناها معلقتان بالهاوية التي تلمع مياهها السوداء في الأسفل كلما أبرقت السماء. خرج صوتها مرتعشاً يختلط فيه هدير الريح برعب السقوط:

إيزابيل: «سينقلبون بنا أو سيدفعوننا إلى الوادي يا رافائيل! لا تقف... أرجوك، لا تدع سيفيرو يمسك بي!»

لم يُجبها رافائيل بالكلام؛ ففي اللحظات التي تتأرجح فيها الأرواح على خيطٍ رفيعٍ فوق الموت، يصبح الكلام عبئاً يسرق التركيز من العينين واليدين. بدلاً من ذلك، ضغط بقوةٍ على مقبض السرعة الثاني، فزمجر المحرك الثماني

الأسطوانات زئيرةً عميقةً دفعت السيارة إلى الأمام، ثم امتدت أصابعه إلى مفتاح الإضاءة وأشعل المصابيح الأمامية أخيراً لخمس ثوانٍ معدودةٍ فقط.

كانت تلك الثواني الخمس كافيةً ليقرأ رافائيل كتاب الصحراء المفتوح أمامه؛ فقد كشفت حزمة الضوء القوية، وسط رذاذ المطر المتطاير، عن تضاريس الطريق الصاعد نحو قمة الهضبة المكشوفة، وكشفت في الوقت ذاته عن منعطفٍ حادّ وضيقٍ ينحدر فجأةً إلى اليسار نحو مجرى نهرٍ جافٍّ قديم، تحفّه جدرانٌ طينيةٌ منخفضةٌ وتغطيه كثافةٌ وحشيةٌ من شجيرات المسكيت الشائكة.

أدرك رافائيل في لمح البصر، وبحدس الصياد الذي صار هو نفسه طريدةً الليلة، أن الاستمرار في الصعود نحو قمة الهضبة المكشوفة هو انتحارٌ محقق؛ فهناك فوق الصخور العارية لن يكون هناك ظلٌّ يحميهما، وستحاصرهما كشافات الشاحنتين وبنادق رجال مونتالفا من كل جهةٍ كهدفٍ مكشوفٍ في ساحة إعدام.

عند الحافة تماماً، في تلك البقعة الضيقة التي تفصل بين الصعود نحو الهضبة وبين الانحدار نحو بطن الوادي، وقبل أن تدور الشاحنتان خلفه حول الصخرة الكبرى التي تحجب الرؤية لثوانٍ قليلة، اتخذ رافائيل قراره الأجرأ.

شدّ رافائيل مكبح اليد نصف شدّةٍ بحركةٍ خاطفةٍ محسوبةٍ بدقةٍ متناهية، وأدار المقود بيده اليمنى نحو اليسار؛ فأدارت «الفورد غالاكسي» جسدها المعدني الضخم بانزلاقٍ حادٍّ ومهيبٍ فوق الطين، وكأنها سفينةٌ سوداء تغيّر دفتها وسط عاصفةٍ هوجاء، وتسللت في صمتٍ انسيابيٍّ إلى أسفل منعطف مجرى السيل الجاف!

وفي اللحظة ذاتها التي ابتلعهما فيها ستار شجيرات المسكيت الكثيفة المتشابكة كأذرعٍ تحمي هاربين في الليل، أدار رافائيل مفتاح المحرك وأطفأه مع المصابيح الأمامية في حركةٍ واحدةٍ متزامنة. ارتطمت الأغصان الرطبة بزجاج السيارة وجوانبها المعدنية في حفيفٍ خافتٍ ذاب سريعاً في هدير المطر، واستقرت الفورد غالاكسي ساكنةً في جوف المجرى المنخفض، غارقةً في ظلامٍ دامسٍ لا يشي بوجودها.

انكمش رافائيل وإيزابيل في مقعديهما، يحبسان أنفاسهما كأن الهواء نفسه قد صار خائناً يمكن أن يفضح مكانهما. كان قلب إيزابيل يدق بعنفٍ في صدرها، ويدها تشدّ على طرف سترة رافائيل الصوفية المبللة، بينما كانت عيناهما تراقبان الحافة الصخرية العلوية التي تعلوهما ببضعة أمتارٍ فقط.

بعد أربع ثوانٍ فقط بدت كأنها دهورٌ من الانتظار، هدرت الشاحنتان المسلحتان كوحشين أعميين على الجرف العلوي، تهتز الصخور تحت ثقل عجلاتهما الضخمة، واخترقت كشافاتهما الكاشفة البيضاء ستائر الضباب والمطر فوق رأسيهما مباشرةً، ترسم أقواساً من الضوء القاسي في الفراغ دون أن ينتبه السائقان في غمرة اندفاعهما إلى ذلك الانعطاف الحادّ المنحدر نحو الوادي!

مضت الشاحنتان تندفعان مسرعتين نحو الشمال الغربي باتجاه قمة الهضبة المكشوفة، يتلاشى هدير محركيهما شيئاً فشيئاً وسط غبار العاصفة وصوت الرعد البعيد، تاركتين خلفهما ظلاماً نقياً ونجاةً تشبه المعجزة.

غير أن «ماوريسيو» لم يكن صياداً ساذجاً يسهل خداعه طويلاً في صحراء مابيمي. فعلى بُعد نصف ميلٍ فوق الهضبة العارية، حيث انكشف الطريق الصخري تحت أضواء الكشافات خالياً تماماً من أي أثرٍ لسيارةٍ سوداء، ضرب كبير الحراس لوحة القيادة بقبضته الحديدية وصرخ في السائق ليتوقف فوراً.

ترجّل ماوريسيو في المطر المنهمر، وسلّط مصباحه اليدوي القوي على الأرض الموحلة خلف الشاحنتين؛ لم تكن هناك آثار إطاراتٍ عريضةٍ لسيارة فورد غالاكسي! أدرك في ثانيةٍ واحدةٍ أن السائق الماكر قد خدعهم وابتلعته إحدى الشعاب أو الوديان الجانبية قبل الصعود إلى القمة.

صاح ماوريسيو في رجاله بصوتٍ يقطر سماً وغضباً: «لقد انحرف عن الطريق قبل المنعطف الكبير! عودوا بالشاحنة الثانية ومشطوا كل مجرى سيلٍ وكل منخفضٍ صخريٍّ في وادي الصبار... لن يذهب بعيداً في هذا الوحل!»

استدارت إحدى الشاحنتين بعنفٍ فوق الصخور، وبدأت رحلة البحث البطيئة والقاتلة في الاتجاه المعاكس، بينما كان المطر يزداد غزارةً ليغسل ما تبقى من آثار العجلات.

في الأسفل، في جوف مجرى السيل الجاف المختبئ تحت أغصان المسكيت المتشابكة، ساد صمتٌ مهيبٌ عميقٌ لم يقطعه سوى صوت قطرات المطر الثقيلة وهي ترتطم بسقف الحديد المهشّم للسيارة، وإيقاع الماء المتسلل ببطءٍ في قاع الوادي البعيد.

ارتمى رافائيل برأسه المتعب على المقود الخشبي يلهث بصعوبة، وقد استنزفت تلك المناورة القاتلة آخر ما تبقى في جسده من طاقةٍ وأعصاب. وحين هدأ تدفق الأدرينالين في عروقه، بدأ الألم الحقيقي يزحف إلى وعيه؛ شعر بذراعه اليسرى تزداد ثقلاً وبرودةً غريبة، وكأن قطعةً من جليد الليل قد استقرت في كتفه الذي مزقته شظايا الزجاج الخلفي عند نزل الرمال.

كانت قطرات الدم الدافئة لا تزال تتقاطر ببطءٍ من كمّ سترته الممزق لتسقط على جلده وعلى المقعد، بينما كان صدره يعلو ويهبط بأنفاسٍ متقطعةٍ تحمل رائحة المطر والبارود والتعب الطويل.

في تلك اللحظة الساكنة التي أعقبت العاصفة، التفتت إيزابيل نحوه في العتمة الكثيفة؛ لم يعد ذلك الرجل الجالس بجوارها هو الغريب الغامض الذي خافت منه في محطة تشيواوا، ولا السائق المراوغ الذي أثار ريبتها في استراحة ديليسياس، بل صار الإنسان الوحيد في هذا الكون الواسع الذي وضع جسده بينها وبين الرصاص، وقادها عبر فم الهاوية ليمنحها فرصةً أخرى للحياة.

مدت إيزابيل أصابعها المرتجفة ببطءٍ في الظلام، وتلمست وجهه المبلل بماء المطر والعرق الدافئ وقطرات الدم التي تناثرت من جبينه، ثم اقتربت من كتفه السليم وهي تبكي بصمتٍ موجعٍ يفيض بالامتنان والخوف عليه:

إيزابيل (تبكي بصمتٍ وهي تقترب من كتفه): «لقد ذهبوا... أنقذتنا يا رافائيل. كيف فعلت ذلك في الظلام؟»

رفع رافائيل رأسه ببطءٍ عن المقود، والتفت إليها في العتمة بعينين داكنتين يلمع فيهما بريقٌ حزينٌ وهادئ، كرجلٍ يرى في مرآة براءتها خلاصه الوحيد من ماضيه الملوث، وأجاب بصوتٍ خفيضٍ يحمل حكمة الطرق الطويلة:

رافائيل: «أحياناً يكون الهروب الحقيقي هو أن تعرف متى تتوقف في العتمة يا إيزابيل... لكن علينا أن نتحرك قبل أن يكتشفوا أن الطريق أمامهم خالٍ من آثار عجلاتنا.»

وقبل أن يمد يده إلى مفتاح التشغيل، فتحت إيزابيل لفافتها القماشية الصغيرة في الظلام، وأخرجت منها ذلك المنديل الأبيض المطرز الذي ورثته عن والدتها الراحلة؛ آخر ذكرى ملموسةٍ تحمل رائحة الأمومة والأمان في حياتها.

دون تردد، مزّقت طرف المنديل بعناية، واقتربت من كتف رافائيل الأيسر لتلفّ القماش النظيف حول جرحه النازف تحت القميص الممزق، وتشدّه برفقٍ يحمل من الحنان ما أذاب صقيع السنين في صدره.

توقف رافائيل للحظةٍ وهو يشعر بأصابعها الدافئة تداوي جرحه في صمت الليل؛ أدرك في أعماقه أنه لم يعد يملك ترف العودة إلى صفقاته القذرة، لكنه في الوقت ذاته تذكر ما يرقد في صندوق سيارته الخلفي: صناديق البنادق المهربة، و«إل بويتري» الذي ينتظره عند أطلال الكيلومتر ١١٤. كانت الصحراء قد جمعت بينهما في قاربٍ واحد، لكن أشباح الماضي كانت لا تزال تنتظرهما عند نهاية الطريق.

أدار رافائيل مفتاح المحرك بحذرٍ شديدٍ وبصوتٍ خافتٍ لا يكاد يُسمع وسط هدير المطر المتواصل، وأبقى المصابيح مطفأةً إلا من وميضٍ خافتٍ يكفي لرؤية الأشبار الأولى أمام المقدمة المعدنية. خرجت «الفورد غالاكسي» ببطءٍ وحذرٍ من تحت ستار شجيرات المسكيت، وتجنبت الصعود إلى الطريق العلوي الذي بدأت أضواء شاحنة ماوريسيو العائدة تلوح في أفقه البعيد.

بدلاً من ذلك، انحرف رافائيل بالسيارة نحو ممرٍّ جانبيٍّ قديمٍ ومهجورٍ في عمق الوادي، كان عمال المناجم يسلكونه في خمسينيات القرن الماضي لنقل الفضة الخام من الجبال؛ طريقٌ وعرٌ ضيقٌ تحفه عربات مناجم صدئةٌ مقلوبةٌ وعوارض خشبيةٌ متآكلة، لم تعد تصله السيارات منذ سنواتٍ طويلة، وتبتلعه أشجار الصبار العملاقة من كل جانب.

ومع كل مترٍ كانت تقطعه السيارة في ذلك المسار المنسي، كان الاثنان يقتربان أكثر فأكثر من مصيرهما المحتوم؛ ففي نهاية هذا الطريق الوعر، وسط صمت صحراء مابيمي، كانت تنتظر «أطلال الكيلومتر ١١٤»... المكان الذي ستنكشف فيه كل الأسرار المقفلة، وتُختبر فيه حقيقة المشاعر قبل أن يولد الفجر.

الفصل التاسع: أطلال الكيلومتر ١١٤

أطلال خان الفضة القديم — عمق صحراء مابيمي | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٠٢:٣٠ فجراً

«لا شيء أشدّ فتكاً بروح رجلٍ أمضى عمره في الظلال من أن تمنحه امرأةٌ بريئةٌ تاج الشرف؛ فالمشنقة تقتل الجسد مرةً واحدة، أما نظرة الامتنان في عيني الضحية فتشعل في ضمير الجلاد ناراً لا يطفئها المطر ولا يمحوها الفجر.»

عند العلامة الخشبية المائلة للكيلومتر ١١٤، حيث ينتصب صليبٌ خشبيٌّ قديمٌ تخبّطت به رياح مابيمي منذ ثلاثين عاماً حتى ابيضّ خشبه وتشقّق كعظامٍ منسيةٍ في العراء، بلغت الرحلة المجنونة نهايتها المحتومة. كانت المطر قد خفّت وطأته وتحولت إلى رذاذٍ باردٍ كثيفٍ يلفّ الصحراء بعباءةٍ من الضباب الرمادي، بينما كان صمت «منطقة الصمت» يطبق على المكان بثقلٍ يخنق الأنفاس.

وفجأةً، أطلقت «الفورد غالاكسي» السوداء أنيناً معدنياً حاداً من أعماقها، وتصاعد من مقدمتها المهشّمة أزيزٌ مكتومٌ يشبه زفرة حيوانٍ جريحٍ استُنزفت

قواه حتى الرمق الأخير. وقبل أن يتمكن رافائيل من تجاوز الصليب الخشبي ببضعة أمتار، نفث مبرد الغالاكسي عموداً أبيض كثيفاً من البخار الساخن اخترق عتمة الفجر البارد، وارتجّ الهيكل المعدني ارتجاجةً أخيرةً قبل أن يتوقف المحرك الثماني الأسطوانات عن النبض تماماً.

ساد سكونٌ مفاجئٌ ومخيف؛ سكونٌ لم يعد فيه هدير محركٍ ولا صرير إطارات، بل صوت قطرات الماء وهي تتساقط ببطءٍ رتيبٍ فوق غطاء المحرك الساخن، وصوت أنفاس إيزابيل ورافائيل المتلاحقة في المقصورة التي فقدت دفئها فجأة. أدرك رافائيل في تلك اللحظة أن وحش الحديد الذي حملهما عبر العاصفة قد مات أخيراً، تاركاً إياهما عاريين في قلب الصحراء على بُعد خطواتٍ من أكثر بقاع مابيمي لعنةً وخطراً.

ترجل رافائيل من السيارة بصعوبة، متكئاً بيده اليمنى على الباب بينما كانت ذراعه اليسرى تتدلى بجانبه كأنها قطعةٌ من الرصاص البارد. مسح بعينيه المجهدتين الأفق المحيط به؛ كانت الأطلال الحجرية لـ «خان قوافل الفضة» القديم تلوح على بُعد أمتارٍ قليلةٍ أسفل المنحدر الترابي، كأنها هيكلٌ عظميٌّ لقلعةٍ منسيةٍ من القرن الماضي، حيث كانت القوافل المحملة بسبائك الفضة القادمة من مناجم بارّال تستريح قبل أن تبتلعها طرق الجنوب.

غير أن رافائيل كان يعرف هذا المكان لسببٍ آخر أشدّ قتامة؛ فهذا الخان المهجور عند الكيلومتر ١١٤ هو ذاته نقطة الالتقاء السرية التي حددها قبل ساعاتٍ في محطة الوقود مع «إل بويتري» وعصابته لتسليم صناديق البنادق المخبأة في صندوق السيارة... ولتسليم إيزابيل!

تصلّب فكّه وهو يدرك فداحة المأزق: رجال سيفيرو مونتالفا يطاردونهما من الشمال، وعصابة إل بويتري ستصل من الجنوب قبل الفجر بساعتين! كان لا بد من إخفاء السيارة فوراً قبل أن تلمحها أي عينٍ من التلال المحيطة. وضع رافائيل كتفه السليم عند إطار الباب المفتوح، وبذل ما تبقى في جسده المنهك من قوةٍ ليدفع السيارة الثقيلة بمساعدة المنحدر الأخير، حتى انزلقت بصمتٍ واستقرت خلف جدارٍ حجريٍّ منهارٍ كان يوماً ما سور الخان الخارجي، بعيداً تماماً عن خط النظر من أي طريقٍ مرتفع.

مدّ رافائيل يده ليساعد إيزابيل على النزول من السيارة، فخرجت الفتاة مرتجفةً تضم شال والدتها ولفافتها القماشية إلى صدرها، وعيناها الواسعتان تتأملان تلك الجدران الحجرية المتآكلة التي تنبعث منها رائحة الحجر الرطب والزمن القديم.

قادها رافائيل بحذرٍ عبر المدخل المنهار إلى داخل فناء الخان الصغير، حيث بقيت ثلاثة جدرانٍ حجريةٍ سميكةٍ تحجب رياح الصحراء العاتية، وبقايا سقفٍ خشبيٍّ نصف مهدَّمٍ يظلّل زاويةً جافةً نسبياً من الأرض الترابية. وقف رافائيل عند فتحة الجدار المتهدم لثوانٍ طويلة، يراقب الأفق الجنوبي والشمالي بعينين حادتين؛ كان يخشى أن يرى أضواء شاحنات «إل بويتري» تقترب في أي لحظة، أو أن يسمع هدير محركات ماوريسيو يعود من وادي الصبار.

وحين تأكد أن العتمة ما زالت سيدة المكان، استدار نحو إيزابيل التي كانت ترتعش بقوةٍ وقد ازرقّت شفتاها من قشعريرة الفجر الرطب. جمع رافائيل بيده اليمنى بعض الأعشاب الصحراوية الجافة التي احتمت تحت بقايا السقف المنهار، وأضاف إليها قطعاً من الخشب المتآكل الملقى في الزاوية، ثم أخرج قدّاحته المعدنية الصغيرة وأشعل ناراً خافتةً منخفضةً تحت حافة الجدار الحجري، بحيث تحجب الحجارة ضوءها عن الخارج وتمنح الفتاة بعض الدفء دون أن تفضح مخبأهما.

تصاعدت ألسنة اللهب البرتقالية الصغيرة بهدوء، تراقص ظلالها فوق الحجارة العتيقة وتبدد صقيع الزاوية الضيقة. اقترب رافائيل من الجدار وجلس ببطءٍ مستنداً بظهره إلى الصخر البارد، محاولاً أن يلتقط أنفاسه وأن يخفي ذلك الدوار الثقيل الذي بدأ يغزو رأسه بفعل نزيفه المستمر.

وحين سقط الضوء البرتقالي الضعيف للنار مباشرةً على قميصه وسترته الممزقة، اتسعت عينا إيزابيل وشهقت مرتاعةً شهقةً مزّقت سكون الخان؛ فقد انكشفت الحقيقة التي حاول إخفاءها طوال الطريق في الظلام. لم يكن الجرح مجرد خدشٍ سطحيٍّ كما زعم، بل كان الدم الداكن الكثيف يغرق كمّه الأيسر بالكامل من الكتف حتى المرفق، ويتقاطر ببطءٍ على التراب الجاف عند قدميه.

انتفضت إيزابيل من مكانها، وتبدد خجلها وخوفها في ثانيةٍ واحدةٍ ليحل محلهما إصرارٌ شجاعٌ لا يملكه إلا قلب امرأةٍ قررت أن تحمي من حماها. اندفعت نحوه وجثت عند ركبتيه وصاحت بصوتٍ يرتجف بالعتاب والخوف:

إيزابيل: «اجلس هنا حالاً! لماذا لم تخبرني أن الجرح عميقٌ هكذا؟ كنتَ تقود بيدٍ واحدةٍ طوال الطريق!»

حاول رافائيل أن يرسم على شفتيه ابتسامته الهادئة المعتادة ليطمئنها، لكن الألم الحادّ والإعياء الثقيل كانا قد جرداه من كل قدرةٍ على التظاهر والتمثيل؛ فبدت ملامحه شاحبةً متعبةً كوجه محاربٍ عاد لتوه من معركةٍ خاسرة.

لم تنتظر إيزابيل إذناً منه؛ بل مدت يديها الصغيرتين وفتحت أزرار قميصه المبلل بالدم والمطر بمهارةٍ وحنان، ثم أزاحت القماش الممزق عن كتفه الأيسر لتكشف عن جرحٍ غائرٍ أحدثته شظية زجاجٍ حادةٍ لا تزال أطرافها تلمع في اللحم النازف.

دون تردد، نزعت إيزابيل وشاحها القطني الأبيض الطويل الذي كانت تلفه حول عنقها تحت معطفها العاجي، وأمسكت بطرفه ومزقته بأسنانها بقوةٍ وعزمٍ إلى أربطةٍ طويلةٍ نظيفة، ثم التفتت إلى لفافتها القماشية وأخرجت منها كوباً معدنياً صغيراً كانت قد جمعت فيه ما بقي من ماء المطر النظيف أثناء هروبهما.

ركعت إيزابيل على ركبتيها فوق التراب البارد أمامه، في مشهدٍ يشبه طقساً مقدساً في معبدٍ مهجور، وبدأت تغسل الجرح بماء المطر الصافي وتنظفه بقطع الوشاح الأبيض بحنانٍ مرتجف. كانت يداها الصغيرتان تتحركان برقةٍ بالغة، تستخرج شظايا الزجاج الدقيقة وتجفف الدم الداكن دون أن تهاب منظره.

في تلك اللحظات الصامتة، كان رافائيل يحدّق في وجهها المضاء بوهج النار البرتقالي؛ كان يرى انعكاس اللهب في عينيها السوداوين الصافيتين، ويشعر بأنفاسها الدافئة تلامس جلده المحموم كلما انحنت لتنفخ برفقٍ على موضع الألم كي لا تؤذيه أثناء شد الرباط القطني حول كتفه.

ومع كل لمسةٍ من أصابعها الرقيقة، كان رافائيل يرى قسوة ماضيه كله، وصفقاته القذرة، وأكاذيبه المتراكمة عبر السنين تتكثف في قطرة دمٍ واحدةٍ تسقط من جسده. لم تستطع عيناه التهرب من قربها الهادئ، ولا من تلك الطهارة التي تحيط به كحكمٍ إلهيٍّ صامت؛ فقد كانت هذه اليدان اللتان تداويان جرحه الآن هما اليدان اللتان كان ينوي قبل ساعاتٍ أن يسلّمهما إلى قيد العبودية في سوق توريون!

انتهت إيزابيل من ربط الضمادة البيضاء بإحكامٍ ولطف، ثم أبقت كفها الصغيرة مستندةً برفقٍ على كتفه المصاب، ورفعت نظرها إليه والدموع تلمع في عينيها كحبات لؤلؤٍ في انعكاس النار المتراقصة. نظرت إليه نظرةً لم يوجهها إليه بشرٌ قط طوال أربعين عاماً، نظرةٌ خاليةٌ من الشك، مليئةٌ بالإجلال والامتنان والدفء الإنساني الخالص، وقالت بصوتٍ خفيضٍ صافٍ يقطر صدقاً:

إيزابيل: «طوال حياتي سمعتُ أن الغرباء يسرقون من يلتقي بهم في الليل. لكنك خاطرْتَ بحياتك لأجلي دون أن تعرف حتى اسم عائلتي. أنت أشرف رجلٍ عرفته في حياتي يا رافائيل... ولن أنسى هذه الليلة ما حييت.»

سقطت تلك الكلمات الست على رأس رافائيل كصاعقةٍ من نار، كانت أقسى عقابٍ سقط عليه في أربعين عاماً من حياته المليئة بالخطايا. أشاح رافائيل بوجهه سريعاً بعيداً نحو الظلام الملتف حول الجدران كي لا ترى ارتجافة شفتيه ولا الدمعة الحارقة التي تجمعت في مقلتيه رغماً عنه.

تمنى رافائيل في أعماقه في تلك اللحظة القاسية لو أن رصاصات ماوريسيو عند نزل الرمال لم تخطئ هدفها، ولو أنها استقرت في قلبه مباشرةً بدلاً من كتفه،

ليموت وهو يحمل شرف اللحظة الأخيرة دون أن يواجه هذا العذاب! كيف يخبر امرأةً بهذه الطهارة والنقاء أنه في الساعة العاشرة مساءً كذب عليها بشأن جسر خيمينيز فقط لينفرد بها في نزلٍ معزول؟ وكيف يعترف لها أن السيارة التي أنقذتها للتو تخبئ في صندوقها بنادق مهربةً، وأنه كان يقودها إلى هذا المكان بالذات ليبيعها مقابل شطب ديونه؟

خرج صوت رافائيل مبحوحاً، مكسوراً، يقطر ندماً ومرارةً لم يعرفهما لسانه من قبل، وهو يرفض ذلك التاج الذي تضعه على رأسه:

رافائيل: «لا تقولي هذا يا إيزابيل... أرجوكِ لا ترفعي صورتي هكذا. أنا لستُ الرجل الشريف الذي تظنينه... لو عرفتِ ما فكرتُ فيه حين أركبتكِ من تشيواوا، لما لمستِ جرحي بيديكِ.»

حدّقت إيزابيل في ملامحه المتألمة في الظلام، ولم يخطر بقلبها البريء أن هذا الرجل الذي نزف دمه لحمايتها يتحدث عن خيانةٍ كاد يرتكبها بحقها هي؛ بل ظنت المسكينة أنه يتحدث عن ماضٍ عابرٍ أو ذنوبِ شبابٍ بعيدةٍ أثقلت ضميره في طرق السفر.

اقتربت منه برقةٍ بالغة، وأغمضت عينيها وأسندت جبينها لثوانٍ دافئةٍ على كتفه السليم، وهمست بامتنانٍ مكسورٍ يمزق روحه إرباً:

إيزابيل: «كلنا نحمل أخطاءنا في الظلام... لكنك اخترتَ النور الليلة لأجلي.»

في تلك اللحظة ذاتها، خارج جدران الخان الصامتة، كانت صحراء مابيمي تستيقظ على خطوات الموت القادمة من اتجاهين متعاكسين. فعلى بُعد أميالٍ قليلةٍ نحو الشمال عند مدخل طريق المناجم القديم، توقفت شاحنة «ماوريسيو» بعد أن لمح أحد رجاله أثر غصن مسكيتٍ مكسورٍ حديثاً وعلامة إطارٍ غائرةٍ في الطين؛ فابتسم كبير الحراس ابتسامةً وحشيةً وهو يشير ببندقيته نحو الجنوب، مؤكداً أن الفريسة تتجه حتماً نحو أطلال الكيلومتر ١١٤.

وفي الاتجاه المعاكس تماماً، من عمق الظلام الجنوبي القادم من جهة توريون، انبثقت في الأفق البعيد أضواء شاحنتين ثقيلتين تزحفان ببطءٍ وحذرٍ عبر الكثبان الرملية، تتقدمهما سيارة جيب عسكرية قديمة يقودها «إل

بويتري» بنفسه، وقد وصل قبل الموعد بساعةٍ كاملةٍ لاستلام بضاعته المهربة والفتاة التي وعده بها رافائيل عبر الهاتف!

داخل الخان الحجري، لم يكن رافائيل قد سمع بعد هدير المحركات البعيدة، لكن غريزته كانت تخبره أن الوقت ينفد، وأن ليل مابيمي يقترب من نهايته المحتومة.

ظل رافائيل جامداً في مكانه، لا يجرؤ على الحركة كي لا يبدد دفء جبينها المستند إلى كتفه، يحدق بعينين شاردتين في النار الصغيرة وهي تنطفئ ببطءٍ وتتحول إلى جمرٍ أحمر خافت يلفظ أنفاسه الأخيرة في الرماد. كان يشعر لأول مرةٍ في حياته بما يشبه الحب الحقيقي؛ ذلك الشعور النقي الذي يولد فجأةً في قلب رجلٍ ظن أن قلبه قد تحجّر إلى الأبد، فيجعله مستعداً للموت من أجل إنسانٍ آخر.

غير أن هذا الحب الوليد كان ممزوجاً برعبٍ قاتل؛ رعبٌ من لحظة الفجر التي تقترب في الأفق، ومن الحقيقة المقفلة في صندوق الفورد غالاكسي خلف الجدار، ومن اللحظة التي ستكتشف فيها إيزابيل أن منقذها لم يكن

سوى صيادٍ تاب في اللحظة الأخيرة، وأن المستور كله على وشك أن ينكشف تحت شمس الصباح.

الفصل العاشر: خريطة الصندوق المقفول

أطلال الكيلومتر ١١٤ — عمق صحراء مابيمي | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٠٤:١٥ فجراً

«الفجر في الصحراء ليس رحمةً كما يظنه الشعراء؛ إنه قاضٍ قاسٍ يخلع عن الليل عباءته السوداء، ويعرّي الأكاذيب التي بدت في العتمة دافئةً كالحقيقة. فما أسهل أن تبني جسراً من الكلمات العذبة في الظلام، وما أصعب أن تصمد حجارته أمام أول خيطٍ من ضوء الصباح!»

تسللت خيوطٌ رصاصيةٌ باردةٌ إلى الأفق الشرقي لصحراء مابيمي، كأن السماء تفتح جفنها المثقل بالسهاد على مضض، وتسكب فوق الرمال المبللة ضوءاً رمادياً شاحباً لا يحمل دفئاً ولا بشارة، بل يعلن نهاية الهدنة التي منحها الظلام للهاربين. انحسر المطر الغزير أخيراً، تاركاً خلفه ضباباً منخفضاً يزحف فوق الصخور المنخورة كأرواحٍ تائهة، وهواءً قارساً يلسع العظام ببرد تشرين الذي لا يرحم.

داخل أطلال «خان الفضة» المهجور عند الكيلومتر ١١٤، كانت النار الصغيرة التي أشعلها رافائيل تحت حافة الجدار الحجري قد خمدت تماماً، ولم

يبقَ منها سوى كومةٍ من الرماد الرطب يتوسطها جمرٌ محتضرٌ يلفظ أنفاسه الأخيرة. كان رافائيل يقف عند فتحة الجدار المنهار كتمثالٍ من الصخر والندم، يراقب الأفق بعينين محمرتين من السهر والألم، ويده اليمنى السليمة تتحسس بين الحين والآخر الوشاح الأبيض الملطخ بالدم الذي لفّته إيزابيل حول كتفه الأيسر.

لأول مرةٍ في حياته، كان رافائيل يخشى طلوع النهار؛ ففي عتمة الليل، استطاع أن يولد من جديد في عيني إيزابيل، وأن يمحو بدمه وجراحه خطيئة نواياه الأولى. غير أن الفجر القادم من الشرق لم يكن يحمل معه أسلحة سيفيرو مونتالفا ورجال «إل بويتري» فحسب، بل كان يحمل معه الحقيقة المقفلة في سيارته؛ تلك الحقيقة التي إن انكشفت، فلن ينفعه بعدها ألف رصاصةٍ يتلقاها دفاعاً عنها.

وفجأةً، وسط ذلك السكون الرمادي الذي يسبق انبلاج الصباح، التقطت أذنا رافائيل صوتاً خافتاً يتسلل من خلف التلال الرملية الشرقية؛ لم يكن هدير شاحنات الدفع الرباعي الثقيلة، ولا زئير سيارات الجيب العسكرية، بل أزيز دراجةٍ بخاريةٍ صغيرةٍ تعبر الكثبان الرملية بحذرٍ شديد، مكتومة الصوت تقريباً، وتزحف في الفجر بلا أضواءٍ تقريباً كطيفٍ يحفظ تضاريس العتمة.

استعد رافائيل في جزءٍ من الثانية، وتقلّصت عضلات جسده المنهك متناسيةً نزيف الكتف وإعياء الليل الطويل. انحنى بهدوءٍ والتقط قضيباً حديدياً صدئاً ملقىً بين أنقاض الخان بيده اليمنى السليمة، والتصق بزاوية الجدار الحجري المنهار، متأهباً للانقضاض على القادم قبل أن يكتشف مخبأهما.

اقترب أزيز الدراجة حتى توقف خلف الكثيب الصغير المحاذي للخان، وترجّل راكبها بخفةٍ فوق الرمل المبلل، متقدماً بخطواتٍ حذرةٍ نحو الأطلال. رفع رافائيل القضيب الحديدي في الهواء، لكن قبل أن يهوي به، اخترق السكون همسٌ شبابيٌّ مبحوحٌ ينادي باسمه باللغة الإسبانية في لهفةٍ مكتومة: «رافائيل! لا تضرب... أرسلتني خالتي كارمين!»

أرخى رافائيل قبضته عن القضيب الحديدي ببطء، وزفر نفساً طويلاً وهو يخرج من خلف الجدار ليرى أمامه فتىً نحيل البنية يقطر معطفه الجلدي ماءً ووحلاً. كان «توماس»، ابن أخت دونيا كارمين ذو السبعة عشر عاماً؛ فتىً رعته صحراء مابيمي منذ نعومة أظفاره، فحفظ مسارب الرمل والوديان السرية أفضل من ذئاب الصحراء، وتعلّم كيف يقرأ اتجاه الريح وأثر العجلات في الظلام كما يقرأ أهل المدن الصحف الصباحية.

ترجل توماس من دراجته الموحلة ودفعها إلى الظل خلف صخرةٍ كبيرة، ثم اقترب من رافائيل وهو يلهث من برد الجري في الريح القارسة. أنزل عن

كتفه حقيبةً قماشيةً مشمعة، وسلّم رافائيل غالون ماءٍ عذبٍ وزجاجةً مطاطيةً مليئةً بسائل التبريد للمحرك، وزوجاً من الأغطية الصوفية الجافة التي تفوح منها رائحة دخان الحطب في «نزل الرمال».

قال الفتى بصوتٍ متقطعٍ وهو يمسح قطرات الندى عن جبينه: «خالتي كارمين بخير رغم صفعة ذلك الكلب ماوريسيو... قالت لي إنكما ستحتاجان الماء والدفء عند الكيلومتر ١١٤، وأوصتني ألا أعود إلا بعد أن أبلغك بما حدث في النزل بعد رحيلكما.»

ابتلع توماس ريقه، واقترب خطوةً من رافائيل ليخفض صوته أكثر، وكأن جدران الخان المتآكلة تملك آذاناً تنقل الأخبار إلى أسياد الشمال:

توماس: «غادر المسلحون النزل بعد أن ركضتم وأشعلتم الحظيرة، لكن سيفيرو مونتالفا نفسه لحق بهم قبل نصف ساعةٍ ومعه سائق سيارةٍ أخرى. لم يكتفِ بإرسال رجاله هذه المرة يا سيدي... لقد جاء بنفسه بعينين تشتعلان كالجمر.»

تصلّبت ملامح رافائيل وهو يسمع اسم «سيفيرو مونتالفا»؛ فمجيء الطاغية بنفسه إلى قلب مابيمي يعني أن المطاردة لم تعد مجرد مهمةٍ مأجورةٍ ينفذها الحراس، بل صارت حرب كبرياءٍ وانتقامٍ لن تتوقف إلا بالدم. تابع توماس

حديثه بسرعةٍ ولهفة، غير مدركٍ أن كل كلمةٍ ينطق بها كانت تطلق رصاصةً قاتلةً في صدر الرجل الواقف أمامه:

توماس: «في طريقهم، توقفوا وسألوا عامل استراحة ديليسياس عن سيارةٍ سوداء... وتحت تهديد البندقية، اعترف العامل بأنك دفعت له مالاً لتخبر هذه الآنسة أن جسر خيمينيز مهدّم بينما الطريق الرئيسي سالكٌ تماماً!»

تجمد الدم في عروق رافائيل في تلك الثانية؛ خُيّل إليه أن سماء الفجر الرمادية قد هوت فوق رأسه دفعةً واحدة، وأن برد صحراء مابيمي كله قد تسلل إلى قلبه ليشلّ نبضه. الكذبة التي دفنها في عتمة الليل، والتي ظن أنها ماتت حين نزف دمه لحماية إيزابيل، قد بُعثت الآن من قبرها على لسان فتىً بريء!

التفت رافائيل بذعرٍ شديدٍ نحو الجدار الحجري المنهار في زاوية الخان، ليتأكد أن إيزابيل ما تزال نائمةً قرب الرماد الخافت بعيداً عن مسمعهما. غير أن قلب رافائيل هوى في صدره حين رأى الغطاء الصوفي ملقىً وحيداً فوق التراب البارد، ولا أثر لإيزابيل في الداخل!

كان حظه العاثر أسرع منه هذه المرة؛ فقبل دقائق معدودة، استيقظت إيزابيل على قشعريرة الفجر الرطب بعد أن خمدت النار الصغيرة، ورأت رافائيل يقف عند المدخل الحجري يراقب الأفق، فخشيت أن تزعج حراسته الصامتة. وتسللت بهدوءٍ نحو «الفورد غالاكسي» السوداء المخبأة خلف

الجدار الحجري المنهار، تبحث في درج لوحة القيادة عن علبة ثقابٍ أو قدّاحةٍ احتياطيةٍ لتعيد إشعال النار الصغيرة وتدفئ جسده المصاب.

داخل مقصورة السيارة الصامتة، جلست إيزابيل على المقعد الجلدي البارد، ومدت أصابعها الرقيقة لتضغط على زر الدرج المعدني القديم في لوحة القيادة. انفتح الغطاء المعدني بصريرٍ خافت، وبدلاً من علبة الثقاب، انزلقت من جوف الدرج وسقطت مباشرةً على ركبتيها خريطة طرقٍ مطويةً لإدارة «بيمكس» لعام ١٩٧٤، ينزلق من بين طيّاتها مفتاحٌ نحاسيٌّ صغيرٌ يحمل علامةً محفورةً تخص صندوق الأمتعة الخلفي.

ترددت إيزابيل للحظةٍ وهي تنظر إلى الخريطة الورقية الكبيرة؛ كانت الأطراف متآكلةً من كثرة الاستخدام، مما يدل على أن صاحبها رجلٌ يحفظ طرق الشمال عن ظهر قلب. وبفضولٍ بريء، فتحت الخريطة الواسعة تحت نور السماء الرمادي البارد المنسكب من إطار الزجاج الخلفي المحطّم، باحثةً بعينيها عن موقع الكيلومتر ١١٤ والمسافة المتبقية لهما نحو الأمان في توريون.

توقفت عينا إيزابيل عن الحركة، وتجمدت أنفاسها في صدرها وهي تحدّق في الورق المفتوح بين يديها. لم تكن تلك مجرد خريطة طرقٍ عادية؛ بل كانت وثيقةً تفضح هندسة الخديعة خطاً بعد خط.

رأت بوضوحٍ تامّ خطاً مرسوماً بقلم رصاصٍ سميكٍ يبدأ من تشيواوا، ثم ينحرف عمداً وبزاويةٍ حادةٍ عن الطريق السريع الفيدرالي رقم ٤٥ عند مشارف «ديليسياس»—حيث كان الطريق الرئيسي مرسوماً باللون الأحمر العريض وممتداً باستقامةٍ واضحةٍ نحو توريون دون أي عوائق—ليتجه الخط الرصاصي المتعمد نحو المسار الترابي المهجور في قلب صحراء مابيمي!

وعند منتصف ذلك المسار الترابي المعزول، رأت دائرةً داكنةً مرسومةً بقلم الرصاص ذاته وبخط يد رافائيل الأنيق حول علامةٍ صغيرةٍ كُتب بجانبها بحروفٍ واضحة: «**نزل الرمال — طريق معزول**»، وإلى جوارها سهمٌ صغيرٌ يشير إلى نقطةٍ نهائيةٍ عند «**الكيلومتر ١١٤**»!

في تلك اللحظة القاسية، انهار العالم الجميل الذي بنته إيزابيل في مخيلتها طوال ساعات الليل؛ أدركت أن لقاءهما في تشيواوا لم يكن قدراً رحيماً، وأن كذبة الجسر المهدّم في ديليسياس لم تكن خوفاً عليها، وأن اختيار غرفةٍ واحدةٍ في نزل الرمال لم يكن بسبب المطر، بل كان كل شيءٍ مرسوماً سلفاً بقلم رصاصٍ باردٍ قبل أن تطأ قدماها سيارته!

لم تسمع إيزابيل بقية كلام توماس في الخارج، ولم تعد بحاجةٍ لأن تسمع حرفاً واحداً آخر؛ فقد كانت الأسطر كلها قد اتضحت في ذهنها كصفعةٍ باردةٍ أيقظتها من أجمل وأقسى وهمٍ عاشته في حياتها. شعرت بطعنةٍ صامتةٍ

تخترق صدرها، طعنةٌ أشد إيلاماً من خيانة عمها ماتيو وقسوة سيفيرو مونتالفا، لأنها جاءت من الرجل الذي ضمدت جرحه بوشاح أمها، والذي منحته قلبها وثقتها ووصفته منذ ساعتين فقط بأنه أشرف رجلٍ عرفته في حياتها!

أغلقت إيزابيل درج لوحة القيادة بهدوءٍ مريبٍ لم يصدر عنه صوتٌ واحد، وجمعت الخريطة المطوية بيدين لا ترتجفان هذه المرة، بل تصلبتا كرخامٍ باردٍ نُحت من صقيع الفجر. فتحت باب السيارة ببطءٍ وخطت خارجاً لتقف عند عتبة الجدار الحجري المنهار، تحدّق في ظهر رافائيل الواقف أمام الفتى.

في تلك اللحظة، التفت توماس بنظره نحو السيارة فجأةً، فلمح شبح الفتاة الشاحب يقف صامتاً عند الباب حاملاً الخريطة في يده. اتسعت عينا الفتى إدراكاً لما جرى، فخفض صوته وهمس لرافائيل بأسىً وحذر:

توماس: «لقد سمعتنا يا سيدي... انظر إليها عند الباب. سأغلق طريق الوادي بالأغصان الشائكة لأؤخرهم قليلاً. احذر عند ممر الصخور، مونتالفا سيحاصر المخرج نحو توريون عند الفجر.»

استدار توماس مسرعاً وقفز فوق دراجته البخارية، فأدار محركها الخافت وانطلق عائداً بين الكثبان الرملية ليبتلعه الضباب الرمادي والظلام المتبقي بسرعة، تاركاً خلفه صمتاً ثقيلاً كالجبل فوق أطلال الكيلومتر ١١٤.

بقي رافائيل واقفاً في مكانه وسط الحجارة المبللة، لم يجرؤ على الالتفات فوراً؛ كان يحمل غالون الماء بيده السليمة كرجلٍ عُري فجأةً أمام المحكمة الأخيرة، رجلٍ سقطت عنه كل دروعه وأسلحته وبقي وحيداً في مواجهة نظرة إنسانٍ أحبه بصدقٍ بعد أن خدعه بمهارة.

استدار رافائيل ببطءٍ شديدٍ وكأنه يحمل ثقل الأرض فوق كتفيه، فالتقت عيناه بعينيها تحت الضوء الفضي البارد للفجر. نزلت إيزابيل من عند حافة الجدار نحو الفناء ببطءٍ ومهابةٍ حزينة، والخريطة المطوية في يدها اليسرى، ووجهها شاحبٌ كأنه فقد كل دفئه ولونه في لحظةٍ واحدة؛ لم تعد تلك الفتاة الخجولة المرتجفة التي ركبت سيارته في تشيواوا، بل بدت امرأةً نضجت في ليلةٍ واحدةٍ على نار الخيبة.

وقفت إيزابيل على بُعد خطواتٍ منه، لا تبكي ولا تصرخ، بل تنظر إليه بعينين صافيتين كمرآةٍ تعكس حقيقته العارية، ورفعت الخريطة قليلاً في الهواء الرطب قبل أن تسأله بصوتٍ هادئٍ منخفضٍ يقطر مرارةً وانكساراً:

إيزابيل: «لم يكن الجسر مهدّماً... أليس كذلك يا رافائيل؟ ولم تكن غرف النزل تالفةً من المطر؟»

تسمّر رافائيل في مكانه، وارتجفت أصابعه حول مقبض غالون الماء حتى ابيضّت مفاصله. فتح شفتيه ليقول شيئاً، ليبرر، ليخبرها أن ما بدأ بانخداع تحوّل في نزل الرمال ووادي الصبار إلى حقيقةٍ يفديها بروحه، لكن الكلمات ماتت في حنجرته؛ فقد أدرك أن أي دفاعٍ الآن ليس سوى إهانةٍ جديدةٍ لبراءتها.

صمت رافائيل؛ لم تجرؤ شفتاه الماهرتان في الغزل والوعود على نطق كذبةٍ واحدةٍ بعد الآن، وأطرق برأسه في استسلامٍ موجعٍ تحت ضوء الصباح الأول، وكان صمته وحده اعترافاً كاملاً أسقط آخر جسرٍ بين قلبيهما.

الفصل الحادي عشر: انكسار المرآة

أطلال الكيلومتر ١١٤ — عمق صحراء مابيمي | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٠٤:٣٥ فجراً

«أقسى خيانةٍ لا تأتي من سيفٍ يطاردك في الظلام، بل من يدٍ ربتت على خوفك لتقودك إلى نفّها... ولكن في لحظة الانكسار العاري، حين يقف القلبان على حافة الهاوية بلا أقنعة، قد يولد من رماد الخيبة دفءٌ لا يملك الصقيعُ ولا الموتُ قدرةً على إطفائه.»

وقفت إيزابيل على بُعد ثلاث خطواتٍ منه في فناء الخان الحجري المهجور، كأن تلك المسافة القصيرة بينهما قد اتسعت فجأةً لتصير صحراءً كاملةً لا تُعبر. كان فجر مابيمي الرمادي يسكب ضوءه الشاحب فوق الأنقاض المبللة، فيكشف بلا رحمةٍ عن كل ما أخفاه الليل؛ عن شحوب الوجوه، وعن آثار الوحل والدم، وعن هشاشة الوعود التي تُنسج في العتمة.

كانت عينا إيزابيل معلقتين بذلك الوشاح القطني الأبيض الذي مزقته من ثوبها بأسنانها لتضمّد به جرح كتفه قبل ساعةٍ واحدةٍ فقط؛ قطعة القماش النقية التي صارت الآن مصبوغةً بدمه الداكن، شاهدةً على لحظةٍ من الرحمة منحتها لرجلٍ لم يمنحها في البداية سوى الوهم. كان الهواء بارداً جداً يلسع وجهها ويديها العاريتين، لكنها لم تشعر بالبرد بقدر ما شعرت بخجلٍ حارقٍ يشتعل في صدرها؛ خجلٍ من سذاجتها، ومن ارتعاش قلبها لصوته الدافئ في السيارة، ومن كل مرةٍ صدّقت فيها ارتعاش صوته وهو يحدثها عن الأمان والحب.

رفع رافائيل رأسه ببطءٍ عن الأرض، وقد أثقله الصمت الذي طال كأنه دهورٌ من المحاكمة. لم يعد يملك ما يختبئ خلفه؛ لا معطفاً أنيقاً، ولا موسيقى خافتة، ولا ظلاماً يجمّل الكلمات. تقدم خطوةً واحدةً متعثرةً بكتفٍ متدليةٍ ينخرها الألم، وبصوتٍ مخنوقٍ خرج من أعماق حنجرةٍ جفّت من الندم، نطق بأول اعترافٍ عارٍ في حياته:

رافائيل: «إيزابيل... استمعي إليّ لحظةً واحدةً فقط، ثم افعلي بي ما تشائين. نعم... في البداية كذبتُ عليكِ. حين رأيتكِ في تشيواوا، ظننتكِ مجرد رحلةٍ عابرةٍ لامرأةٍ وحيدةٍ سأكسب قلبها في نزلٍ بعيد. هذه هي الحقيقة القذرة التي عشتُ عليها سنواتٍ قبل الليلة.»

ترددت كلماته بين الجدران الحجرية المتآكلة، فارتدّ صداها بارداً كالحجارة نفسها، تاركاً جرحاً مفتوحاً في هواء الفجر الرمادي.

رفعت إيزابيل رأسها ببطءٍ ومهابةٍ حزينة، وحدّقت في عينيه الغائرتين تحت ضوء الفجر الفضي. لم تعد تلك الفتاة المذعورة التي تختبئ في زوايا المقاعد وتخفض رموشها خجلاً من نظرة رجل؛ لقد صهرتها هذه الليلة في أتون الخيانة والدم، فبدا في عينيها حزنٌ ناضجٌ وصلب، وأكبر من عمرها بعشرين عاماً.

أشارت بيدها المرتجفة نحو الأفق الشمالي حيث يتربص رجال سيفيرو مونتالفا، ثم أعادت بصرها إليه، وقالت بصوتٍ هادئٍ يقطر وجعاً وحكمةً تدمي القلب:

إيزابيل: «الوحوش التي هربتُ منها كانت تلوّح ببنادقها وتصرخ بأوامرها، فعرفتُ من أول لحظةٍ أن أكرهها... أما أنت يا رافائيل، فخلعتَ سترتك لتدفئني، وأسمعتني أغاني الحب، وجعلتني أسلّمك ثقتي برضاي! أي الرجلين أشد قسوةً في نظرك؟»

اخترق سؤالها صدر رافائيل كسهمٍ مسمومٍ لا ترياق له. لم يستطع أن يقف منتصباً أمام تلك الإدانة النقية؛ فسقط على ركبتيه فوق الحصى الرطب وهو يضم قبضته السليمة إلى جبينه المحموم بعرق الألم والعار. لم يشعر في حياته بالذل كما شعر أمام هذه الأسئلة الهادئة؛ فهي لم تشتمه، ولم تبصق في وجهه، بل خاطبته بذلك الوجع النظيف الذي لا يترك للرجل مخرجاً للهرب من نفسه.

رفع رأسه المبلل بالعرق والدم، وعيناه تلمعان بانكسارٍ حقيقيٍّ لم يعرفه منذ طفولته، وهتف بصوتٍ يرتجف بالصدق واليأس:

رافائيل: «لم أعد ذلك الرجل بعد منتصف الليل يا إيزابيل! حين بكيتِ في النزل وقلتِ لي إنكِ لم تجدي أحداً لطيفاً في بيتكِ... انكسر فيّ كل شيءٍ قديم. كل رصاصةٍ تلقّيتها في السيارة وكل منعطفٍ سلكته في الوادي كان ليصل بكِ إلى توريون سالمةً، لا لأمسكِ ولا لأسرق منكِ شيئاً! أقسم لكِ بروح أمي التي لم أحلف بها منذ عشرين سنة: إني أحببتكِ في هذه الليلة أكثر مما احترمتُ نفسي طوال عمري!»

انهمرت دمعةٌ وحيدةٌ ساخنةٌ على خد إيزابيل الشاحب، تفضح ذلك الصراع العنيف الذي يمزق صدرها بين بقايا حنانٍ لم يمت بعد، وبين كبرياء امرأةٍ اكتشفت أنها كانت مجرد لعبةٍ في بداية الطريق. لكنها سرعان ما رفعت

يدها ومسحت تلك الدمعة بعنفٍ بظهر كفها، وكأنها ترفض أن تغفر لنفسها ضعفها أمام عينيه الممزقتين بالألم.

أفلتت الخريطة المطوية من أصابعها لتسقط فوق الحصى الرطب بينهما، وقالت بصوتٍ صلبٍ يحمل مرارة الفجر:

إيزابيل: «الحب الذي يبدأ بكذبةٍ في محطة مطرٍ يا رافائيل لا يستحق أن أصدقه قبل أن أرى الفجر. سأسير وحدي نحو الطريق الرئيسي... إن أردتَ أن تنجو بحياتك فعد بالسيارة نحو تشيواوا، فلن يربح مونتالفا شيئاً من قتلك الآن.»

أدارت إيزابيل ظهرها له بحركةٍ حاسمة، وسارت بخطواتٍ سريعةٍ وثابتةٍ نحو ممر الحجارة الضيق الذي يقود إلى الطريق السريع، غير عابئةٍ بنزيفه ولا بالعتمة الرمادية. لحقها رافائيل راكضاً رغم دوار كتفه، ووقف منتصباً في وسط

الممر الضيق تماماً قبل أن تخطو خارج السياج الحجري المنهار، وقال بنبرةٍ هادئةٍ وحازمةٍ لأول مرةٍ بلا أي زخرفةٍ لفظية:

رافائيل: «لن تذهبي خطوةً واحدةً مشياً على الأقدام ومونتالفا يمشط الوادي. اركبي في المقعد الخلفي إن كرهتِ الجلوس بجانبي... لكنني لن أتركِ تخرجين إلى بنادقه وحدك.»

وما إن نطق بكلماته الأخيرة حتى ترنح جسده المنهك فجأةً، واستند بيده السليمة إلى الصخر البارد وهو يكتم أنيناً خافتاً؛ فقد استنزف النزيف المستمر وبرد الفجر القارس آخر ما تبقى في عروقه من قوة.

في تلك اللحظة، حين رأت إيزابيل شحوب وجهه وارتجاف شفتيه المزرقتين من البرد والحمى، انهار جدار الكبرياء الذي حاولت رفعه حول قلبها. لم يعد أمامها رجلٌ يراوغ بالكلمات، بل إنسانٌ يقف على حافة الانهيار الجسدي

والروحي من أجلها، بينما كانت هي الأخرى ترتعش من فرط الإنهاك والخوف والوحدة التي سحقتها طوال الليل.

تقدمت إيزابيل نحوه بخطوةٍ سريعةٍ مرتجفة، وأمسكت بذراعه السليمة لتسنده، ثم قادته بصمتٍ بعيداً عن ريح الممر المكشوف إلى أعمق زاويةٍ في الخان الحجري المهجور، تجويفٌ صخريٌّ معزولٌ تحت بقايا سقفٍ مقببٍ تحجبه الجدران عن صقيع الصحراء. فرشت إيزابيل الأغطية الصوفية الجافة التي أحضرها «توماس» فوق التراب الجاف، وجلسا متلاصقين في العتمة الدافئة للزاوية، يرتجفان معاً تحت وطأة ضعفٍ إنسانيٍّ عارٍ أسقط كل الحواجز بينهما.

التفتت إيزابيل نحوه في ظلال الزاوية الحجرية، كان وجهه قريباً جداً من وجهها، وعيناه الغائرتان تحدقان فيها بانكسارٍ وصمتٍ يشبه الصلاة. امتدت يدها المرتجفة ببطءٍ، ولامست أصابعها الرقيقة وجنته الباردة، تمسح عنها أثر الطين والدم برقةٍ أذابت ما تبقى من مرارة الخيبة في صدرها.

أغمض رافائيل عينيه وأسند خده إلى راحة كفها الصغيرة باستسلامٍ كامل، وهمس بصوتٍ مبحوحٍ يرتجف من الضعف والصدق: «دعيني أمتلك في حياتي لحظةً واحدةً لم أسرقها بالخداع يا إيزابيل... لحظةً أكون فيها حياً بكِ وحدكِ.»

لم تجبه إيزابيل بالكلام؛ بل انهمرت دموعها الدافئة بصمتٍ ومالت برأسها نحوه، حتى التقت أنفاسهما المتلاحقة في فضاء الزاوية الضيقة. مدّ رافائيل ذراعه اليمنى السليمة وأحاط خصرها النحيل برفق، وجذبها إليه حتى التصق صدرها بصدره، فالتقت شفتاهما في قبلةٍ مرتجفةٍ بطيئةٍ في البداية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى عناقٍ محمومٍ يائسٍ يبحث في الآخر عن ملاذٍ من قسوة العالم.

في تلك الزاوية المعتمة من أطلال الكيلومتر ١١٤، تحوّل ضعفهما المشترك إلى طوفانٍ عاطفيٍّ جارفٍ جرف معه خوف الليل وأشباح الماضي. أزاحت

إيزابيل معطفها العاجي المبلل عن كتفيها، وسحب رافائيل الغطاء الصوفي الجاف ليحيط بهما معاً كشرنقةٍ دافئةٍ تعزلهما عن صقيع تشرين.

تلاشت المسافات كلها بين جسديهما المرتجفين؛ لم يكن هناك رجلٌ ماكرٌ ولا فتاةٌ هاربة، بل روحان عاريتان من كل زيف، تذوبان في تلاحمٍ حميميٍّ صادقٍ يطرد شبح الوحدة والموت. تسللت أنامل إيزابيل برقةٍ وحذرٍ لتتجنب موضع الجرح المضمّد في كتفه الأيسر، وراحت تتحسس دفء جلده العاري وهي تهمس باسمه في عنقه كتعويذةٍ تمنحه الحياة، بينما كان رافائيل يضمها بذراعه السليمة بكل ما تبقى في جسده من شغفٍ وحنان، يقبّل جبينها وعينيها المبللتين بالدموع، ويدفن وجهه في شعرها الداكن مستنشقاً ميلاده الجديد بين ذراعيها.

لم تكد أنفاسهما تهدأ تحت الغطاء الصوفي في تلك الزاوية الحجرية المعتمة من خان الكيلومتر ١١٤، حتى مزّق سكون الفجر الرمادي صوتٌ معدنيٌّ غليظٌ ارتدّ صداه بين الصخور كصفارة إنذارٍ أخيرة. دوّت أبواق شاحنتين قويتين

من أعلى الهضبة الصخرية المشرفة على الوادي، وانعكست أربعة أشعةٍ كاشفةٍ بيضاء قاسية تخترق ستار الضباب المنخفض، لتغلق مخارج الممر الصخري من الجهتين تماماً.

انتفض رافائيل في مكانه، وتصلبت عضلات جسده المنهك في جزءٍ من الثانية، بينما اتسعت عينا إيزابيل في الظلام وهي تشدّ الغطاء الصوفي إلى صدرها. لم يعد هناك وقتٌ للهمس ولا للدموع؛ فقد أدرك الاثنان في صمتٍ مشتركٍ أن صيادي الشمال قد أطبقوا الكماشة حول الأطلال.

ارتديا ملابسهما بسرعةٍ وصمتٍ محمومٍ في عتمة الزاوية الحجرية؛ شدّت إيزابيل أزرار معطفها العاجي المبلل بيدين ثابتتين هذه المرة، ولفّت شال والدتها القديم بإحكامٍ حول كتفيها، ثم امتدت أصابعها الرقيقة في العتمة لتتحسس الرباط القطني الأبيض الملطخ بالدم حول كتف رافائيل الأيسر وتتأكد من ثباته. أما رافائيل، فتناول مسدسه الأسود «كولت» من جيب سترته الصوفية، وتفقد أسطوانة الرصاص بنظرةٍ سريعةٍ في الضوء الرمادي الشاحب؛ لم يكن فيها سوى أربع رصاصاتٍ فقط.

التفت رافائيل نحوها، وأمسك بكفها الصغيرة بيده اليمنى السليمة ضغطةً قصيرةً دافئةٍ تختصر كل ما عجزت الكلمات عن قوله طوال الليل، وهمس بصوتٍ خفيضٍ حاسم: «البقاء بين هذه الجدران المنهارة يعني أن يحاصرونا كالفئران يا إيزابيل. فرصتنا الوحيدة هي الوصول إلى السيارة قبل أن ينزلوا من الهضبة... ابقي منخفضةً خلفي تماماً.»

تسلل الاثنان كظلّين صامتين بمحاذاة الجدار الحجري المتآكل للخان، مستترين بكثافة الضباب الرمادي وأغصان المسكيت، حتى بلغا «الفورد غالاكسي» السوداء المخبأة خلف السور المنهار. فتح رافائيل الباب بهدوءٍ لتدخل إيزابيل إلى مقعدها، ثم قفز خلف المقود وأدار المفتاح بحذر؛ فاستجاب المحرك الثماني الأسطوانات بعد أن بردت أحشاؤه بماء النزل، وانطلقت السيارة السوداء زاحفةً بصمتٍ حذرٍ فوق الحصى الرطب، متجهةً نحو المضيق الحجري الضيق أملاً في بلوغ الطريق الرئيسي قبل أن يُغلق الباب تماماً.

مع انبلاج الخيوط الرمادية الأولى للفجر فوق قمم صحراء مابيمي، كانت «الفورد غالاكسي» السوداء تخرج ببطءٍ وحذرٍ من خلف السور المنهار لأطلال الكيلومتر ١١٤، يئنّ محركها الثماني الأسطوانات أنيناً مكتوماً كوحشٍ جريحٍ استعاد أنفاسه بصعوبةٍ بعد أن بردت أحشاؤه بماء النزل.

كان رافائيل يقودها بيده اليمنى السليمة عبر المسرب الترابي المتعرج، متجهاً نحو المضيق الحجري الضيق الذي يفصل طريق المناجم القديم عن الإسفلت الفيدرالي الرئيسي المؤدي إلى توريون.

غير أن الصحراء لم تكن قد منحتهما الإذن بالعبور بعد؛ فما إن قطعت السيارة عشرات الأمتار القليلة داخل ذلك الخانق الصخري الضيق الذي تحفّه جدرانٌ شاهقةٌ من الصخر الداكن الرطب، حتى انكشف الكمين الذي نصبه الصياد في صمت الفجر.

عند مدخل المضيق الحجري تماماً، وقفت شاحنة بيك أب داكنةٌ بعرض الطريق كسدٍّ من الفولاذ، تسدّ المنفذ الوحيد نحو الطريق السريع، ومن خلفها بمسافةٍ قصيرةٍ أضاءت فجأةً مصابيح شاحنةٍ ثانيةٍ انحدرت من التلّ لتغلق طريق العودة إلى الأطلال. في أقل من عشر ثوانٍ، تحوّل المضيق الصخري إلى قفصٍ حجريٍّ محكم الإغلاق، تحاصره الكشافات البيضاء وفوهات البنادق من الأمام والخلف.

ضغط رافائيل على المكابح بهدوءٍ ثقيل، فتوقفت «الفورد غالاكسي» وسط الوحل والحجارة المبللة، يتصاعد من مقدمتها المهشّمة خيطٌ رفيعٌ من البخار الأبيض يذوب في ضباب الصباح البارد. داخل المقصورة، خيّم صمتٌ غريب؛ صمتٌ لم يكن فيه ذعر الليلة الماضية ولا ارتباك الهاربين، بل سكينةٌ

عميقةٌ ولدتها تلك اللحظة العارية في الزاوية الحجرية للخان، حين سقطت الأقنعة وتوحّد المصيران.

التفت رافائيل نحو إيزابيل بنظرةٍ خاطفةٍ دافئةٍ تمنحها الطمأنينة وسط الحصار، فأومأت له برأسها في صمتٍ شجاعٍ، وقد جفّفت دموعها تماماً وحلّ محلها ثباتٌ صلبٌ لا يليق بفتاةٍ في الخامسة والعشرين، بل بامرأةٍ قررت ألا تُباع مرتين.

في الخارج، انفتح باب الشاحنة الأمامية بصوتٍ معدنيٍّ ثقيل، وترجّل منها سيد الشمال ومالك حقول القطن ومناجم الفضة: «سيفيرو مونتالفا» بنفسه.

كان سيفيرو مونتالفا رجلاً ضخم البنية في الثانية والخمسين من عمره، يمشي بخطواتٍ بطيئةٍ متعاليةٍ تزن الأرض تحت حذائه الجلدي اللامع كأنه يملك تراب مابيمي وصخورها كما يملك صكوك الديون في خزائن تشيواوا. كان يرتدي معطفاً جلدياً أسود فاخراً يصدّ رذاذ الفجر، وتعلو رأسه قبعةٌ عريضةٌ داكنةٌ تظلل جبيناً عريضاً وعينين قاسيتين بلون الرصاص البارد؛ عينان اعتادتا طوال ثلاثين عاماً أن تنحني لهما الرقاب في قرى تشيواوا ومزارعها دون أن يجرؤ أحدٌ على رفع بصره إليهما.

على ذراعه اليسرى، كان يحمل بندقية صيدٍ مزدوجة السبطانة، مفتوحة الذخيرة باسترخاءٍ مستفز، وكأنه لم يقطع مئات الأميال في ليلةٍ عاصفةٍ لمطاردة هاربين، بل خرج في نزهةٍ صباحيةٍ هادئةٍ لصيد الطيور المهاجرة عند الفجر، بينما انتشر خلفه «ماوريسيو» وأربعة رجالٍ آخرين مدججين بالبنادق يحيطون بالسيارة السوداء من كل جانب.

توقف سيفيرو على بُعد خطواتٍ قليلةٍ من مقدمة الفورد غالاكسي المحطمة، وألقى نظرةً مزدريّةً على زجاجها الخلفي المهشّم وهيكلها الملطخ بالطين والرصاص، ثم ارتسمت على شفتيه الغليظتين ابتسامةٌ باردةٌ خاليةٌ من أي دفءٍ إنساني، ونادى بصوتٍ جهوريٍّ متعجرفٍ يتردد صداه بين جدران المضيق الحجري:

سيفيرو مونتالفا: «انزلي يا إيزابيل. لقد انتهت تمثيلية الهرب المضحكة هذه. القس في الكنيسة ينتظرنا في العاشرة، ولن أتسامح مع فتاةٍ تلطخ شرف اسمي بالفرار في سيارات الأجرة القذرة.»

سقطت كلماته في هواء الفجر كصفعةٍ معدنيةٍ باردة؛ كلمات رجلٍ لا يرى في المرأة سوى قطعة أرضٍ اشتراها بماله من عمها ماتيو، ولا يرى في شرفها وكرامتها إلا ورقةً في سجلّ أملاكه الخاصة.

في داخل السيارة، انقبضت أصابع إيزابيل على طرف شال والدتها القديم، ثم فتحت بابها ببطءٍ ومهابة؛ لم تفعل ذلك طاعةً لأوامر سيفيرو أو خضوعاً لتهديده، بل لأنها رأت فوهات البنادق الخمس مصوبةً مباشرةً نحو زجاج السيارة، وخشيت أن يطلقوا النار على رافائيل ويقتلوه غدراً داخل المقصورة الضيقة قبل أن يملك فرصةً للدفاع عن نفسه.

غير أن رافائيل سبقها في جزءٍ من الثانية؛ فما إن تحرك بابها حتى دفع باب السائق بقوةٍ ونزل منتصباً متكئاً بيده اليمنى على الحديد المصبوغ بالوحل، ثم خطا خطوتين حاسمتين ليقف بجسده المنهك حاجزاً بين إيزابيل وبين سبطانة بندقية مونتالفا.

كان منظره في ضوء الفجر الرمادي يبعث على الرهبة؛ قميصه الأبيض غارقٌ بالدم الداكن من جهة الكتف الأيسر، والوشاح القطني الأبيض الملطخ بالدم يظهر تحت سترته الممزقة، ومع ذلك كان يقف بقامةٍ مستقيمةٍ لا تنحني، وعيناه تشتعلان بهدوءٍ مخيف.

نظر رافائيل مباشرةً في عيني سيفيرو مونتالفا، غير آبهٍ بالبنادق المصوبة نحو صدره، وقال بصوتٍ عميقٍ ثابتٍ يقطع سكون المضيق كحدّ السيف:

رافائيل: «ليست فتاةً هاربةً من بيتها لتُعاد كالبضاعة يا دون سيفيرو. إذا أردتَ خصومةً الليلة، فأنا من قادها إلى هنا... دعها تعبر إلى الطريق الفيدرالي وخذ حسابك مني.»

في تلك اللحظة، تجسّدت أمام مونتالفا الحقيقة التي يعجز أصحاب الملايين عن فهمها؛ فالرجل الذي أمضى عمره يبيع ويشتري كل شيءٍ بالمال يقف عاجزاً حين يصطدم برجلٍ تخلّى عن حياته وماله وأكاذيبه، ولم يعد في قلبه شيءٌ يخاف خسارته سوى كرامة المرأة التي يحبها.

ضحك سيفيرو مونتالفا ضحكةً جافةً باردةً تشبه احتكاك الحجارة ببعضها، وهزّ رأسه بسخريةٍ وهو يتأمل رافائيل من رأسه حتى حذائه الموحل كأنه ينظر إلى حشرةٍ ضالةٍ اعترضت طريقه. ثم مدّ يده المكسوة بالقفاز الجلدي إلى جيب معطفه الداخلي، وأخرج رزمةً سميكةً من أوراق المئة بيسو الجديدة، وألقاها بازدراءٍ في الوحل الرطب عند حذاء رافائيل الملطخ بالطين، قبل أن يقول بنبرةٍ تقطر سماً واحتقاراً:

سيفيرو مونتالفا: «هذه أجرة توصيلك يا سائق الليل، وزيادةٌ لتشتري زجاجاً جديداً لسيارتك البائسة. لستُ أضيع رصاصي على صعلوكٍ مثلك إلا إذا مددتَ يدك نحو خطيبتي ثانيةً. يا ماوريسيو... خذها إلى الشاحنة، وإذا تحرك السائق، اكسر ساقيه واتركه للنسور.»

ما إن أصدر الطاغية أمره القاسي حتى تقدم «ماوريسيو»—وعلى خده أثر كدمةٍ حمراء من ليلة النزل—برفقة رجلٍ آخر ضخم الجثة نحو إيزابيل، تتقارع أحذيتهما الثقيلة فوق حصى المضيق المبلل.

تراجعت إيزابيل خطوةً واحدةً إلى الخلف حتى لامس ظهرها باب الفورد غالاكسي المفتوح، ونظرت إلى سيفيرو مونتالفا نظرة اشمئزازٍ تامٍّ وكراهيةٍ صافيةٍ لم تعرفها روحها من قبل؛ نظرةٌ أدرك معها سيفيرو أن أمواله ومناجمه لن تشتري له خضوع هذه الفتاة أبداً.

وفي آخر ثانيةٍ قبل أن تصل إليها يد ماوريسيو الغليظة، التفتت إيزابيل بنظرةٍ خاطفةٍ نحو رافائيل الواقف على بُعد خطوتين منها؛ كانت ترى في عينيه الداكنتين هدوءاً مخيفاً وحساباً دقيقاً، لا يشبه أبداً نظراته المخادعة المراوغة في محطة تشيواوا، ولا هلعه المتوتر في فناء نزل الرمال.

في تلك اللمحة الخاطفة التي لم ينتبه لها أحدٌ من الحراس، رأته يغمز لها بطرف عينه إشارةً خفيةً نحو باب الغالاكسي المفتوح خلفها، ويمسح بكفه اليمنى السليمة طرف سترته الصوفية المبللة حيث يرقد مسدسه الأسود. فهمت إيزابيل الرسالة في جزءٍ من الثانية، فانتصبت بقامةٍ شامخة، وصاحت بحسمٍ يزلزل أركان المضيق الحجري أمام الرجال المسلحين:

إيزابيل: «لن أركب معك حيةً يا سيفيرو! اقتلني هنا في المضيق قبل أن تضع يدك على ذراعي!»

اشتعل الغضب الوحشي في عيني «ماوريسيو» أمام هذا التحدي العلني في حضرة سيده، فرفع يده الثقيلة وصفع إيزابيل بقسوةٍ على وجهها وهو يمسك بمعصمها النحيل بعنفٍ ليجرها قسراً نحو الشاحنة الأمامية.

ارتدّ رأس إيزابيل من شدة الصفعة وسقط شال والدتها عن كتفيها نحو الوحل، لكن قبل أن يخطو ماوريسيو خطوةً واحدةً بها، انطلق رافائيل كسهمٍ أسودٍ يشق ضباب الفجر، لم ينطلق لينقذ نفسه أو ليفرّ بحياته، بل ألقى بكل ثقله وجسده الجريح في معركةٍ خاسرةٍ ظاهرياً ضد خمسة رجالٍ مسلحين في قلب المضيق الحجري.

في تلك اللحظة التي ارتدّ فيها رأس إيزابيل من قسوة صفعة ماوريسيو، وسقط شال والدتها الصوفي نحو الحصى المبلل، انفجر في صدر رافائيل بركانٌ ظلّ يحتقن منذ أن رأى دموعها الأولى في محطة تشيواوا. لم يفكر في البنادق الخمس المشرعة نحوه، ولا في نزيف كتفه الأيسر الذي استنزف نصف دمه، بل انقضّ كسهمٍ أسودٍ يشق ضباب الفجر الرمادي، مدفوعاً بقوة رجلٍ قرر أن يشتري طهارة روحه بما تبقى له من حياة.

ارتطم جسد رافائيل بماوريسيو كقذيفةٍ بشريةٍ قبل أن يتمكن الحارس الضخم من سحب إيزابيل خطوةً واحدةً نحو الشاحنة. وبكل ما تبقى في ذراعه اليمنى السليمة من عزمٍ وغضب، سدّد رافائيل لكمةً قاسيةً كالمطرقة مباشرةً في فكّ ماوريسيو، دوّى صداها بين جدران المضيق الحجري، فأفلت الرجل معصم إيزابيل وتهاوى كجذع شجرةٍ مقطوعةٍ في الوحل الرطب، يبصق دماً وتراباً وهو يلهث بذهول.

لم يمنح رافائيل الحراس المذهولين ثانيةً واحدةً ليستوعبوا سرعة الهجوم؛ ففي حركةٍ خاطفةٍ تجمع بين شراسة المقاتل وحنان العاشق، انحنى والتقط شال والدتها الصوفي من حافة الوحل بيده اليسرى المصابة، ثم أحاط إيزابيل بذراعه اليمنى ودفعها بقوةٍ حانيةٍ خلف الباب الفولاذي الثقيل للفورد غالاكسي، صارخاً بصوتٍ أجشّ يمزق سكون الفجر: «ادخلي وانبطحي على الأرضية تحت المقعد حالاً! لا ترفعي رأسكِ مهما سمعتِ!»

سقطت إيزابيل داخل المقصورة، تضم الشال الصوفي إلى صدرها المرتجف، بينما انتفض الحارس الثاني الذي كان يرافق ماوريسيو ورفع بندقيته الثقيلة مصوّباً فوهتها مباشرةً نحو صدر رافائيل المكشوف عند الباب.

في جزءٍ من الثانية، قفز رافائيل إلى مقعد السائق وأغلق الباب الفولاذي الثقيل خلفه بكل قوته، في اللحظة ذاتها التي انطلقت فيها رصاصتان حارقتان

من بندقية الحارس، فاخترقتا حديد الرفرف الأمامي للسيارة بصريرٍ معدنيٍّ حادٍّ أطلق شراراتٍ برتقاليةً خاطفةً في الضباب، دون أن تنالا من جسده.

كان المضيق الصخري ضيقاً جداً ووعراً، تحفّه جدرانٌ صخريةٌ شاهقةٌ لا تكاد تتسع إلا لمرور شاحنةٍ واحدة؛ غير أن «الفورد غالاكسي» لعام ١٩٦٦ لم تكن في تلك اللحظة مجرد سيارةٍ للتهريب أو وسيلةٍ للهرب، بل كانت كتلةً صلبةً من الفولاذ الأمريكي القديم بوزنٍ يتجاوز الطنين، صُنعت في زمنٍ كان الحديد فيه يُصاغ ليتحمل الصدمات لا لينحني أمامها. وفي فلسفة المعارك اليائسة، يتحول الحديد الصامت أحياناً إلى كائنٍ حيٍّ يبادل صاحبه الوفاء بالوفاء.

أدار رافائيل المقود بقبضةٍ حديدية، ووضع ذراع السرعة على الرجوع للخلف بأقصى قوةٍ ليكتسب مسافة اندفاعٍ كافيةٍ في قلب الخانق الضيق. تراجعت السيارة الثقيلة بضعة أمتارٍ إلى الوراء، تئنّ إطاراتها العريضة فوق الطين والحصى المبلل، بينما كان رجال سيفيرو مونتالفا يركضون على جانبي المضيق صارخين وهم يحاولون إعادة تلقيم بنادقهم في ارتباك.

توقفت الغالاكسي لجزءٍ من الثانية عند أقصى نقطةٍ خلفيةٍ قبل الشاحنة الثانية التي تسدّ طريق الأطلال، ونقل رافائيل ذراع السرعة إلى الأمام

بعنف، ثم ضغط بقدمه على دواسة الوقود حتى لامست الصفيح المعدني لأرضية السيارة.

زمجر المحرك الثماني الأسطوانات زئيراً جباراً ارتجت له صخور الوادي، ودُفع الهيكل الأسود الضخم بقوةٍ هائلةٍ نحو الأمام، مصوّباً مقدمته الفولاذية العريضة مباشرةً نحو الجناح الخلفي للشاحنة الداكنة التي تسدّ مخرج المضيق نحو الطريق الرئيسي.

دوّى ارتطامٌ معدنيٌّ مروعٌ هزّ أركان الصحراء كصاعقةٍ أرضية؛ انبعج الحديد، وتطاير الزجاج والحطام في الهواء، وأطاح ثقل الغالاكسي الجبار بمؤخرة الشاحنة بعنفٍ نحو جدار الصخر الجانبي، فزحفت الشاحنة على الحصى المبلل بصريرٍ يصمّ الآذان، وفتحت بينها وبين الجدار الصخري المقابل ثغرةً ضيقةً بالكاد تمر منها سيارةٌ واحدة!

غير أن الثمن الذي دفعه رافائيل لعبور تلك الثغرة كان باهظاً؛ ففي اللحظة ذاتها التي التوت فيها مقدمة الغالاكسي لتتسلل بين هيكل الشاحنة المحطمة والصخر، قفز «سيفيرو مونتالفا» إلى جوار النافذة الجانبية للسائق وعيناه تشتعلان بجنون الكبرياء الجريح، ورفع بندقيته مزدوجة السبطانة من مسافةٍ قريبةٍ جداً ليضغط على الزناد.

دوّى الانفجار المكتوم للبندقية في قلب الممر الضيق؛ فتهشم الزجاج الجانبي لجهة السائق إلى آلاف الشظايا القاتلة، ومزقت شظايا الرصاص والزجاج المتطاير ذراع رافائيل اليمنى وخاصرته بشظايا حارقةٍ فجّرت نافورةً من الدم فوق قميصه والمقعد الجلدي، بينما اخترقت إحدى الرصاصات لوحة القيادة لتهشم زجاج الساعة الدائرية وتوقف عقربيها إلى الأبد عند الساعة الخامسة وثلاثين دقيقةً فجراً.

أطلق رافائيل أنيناً مكتوماً وهو يعضّ على شفتيه بقوةٍ لئلا يفقد وعيه من هول الصدمة والحرقة النارية التي اجتاحت جانبه الأيمن، فمالت السيارة الثقيلة بعنفٍ وكادت ترتطم بجدار الصخر الأيسر داخل الثغرة الضيقة.

من أرضية المقصورة، نهضت إيزابيل مذعورةً حين رأت الدم يتدفق بغزارةٍ من خاصرته وذراعه، واندفعت إلى الأمام لتمسك بالمقود الخشبي بكلتا يديها الصغيرتين فوق يده الدامية، وهي تصرخ بصوتٍ يمزقه الرعب واللوعة:

إيزابيل: «رافائيل! لا تغمض عينيك! تمسّك بي... سأمسك المقود معك!»

لم يرفع رافائيل قدمه عن دواسة الوقود رغم الظلام الذي بدأ يزحف إلى أطراف بصره؛ وبمساعدة يدي إيزابيل اللتين ثبتتا المقود معه في تناغمٍ مذهل، عبرت الغالاكسي المخدوشة وسط الشرر المتطاير واحتكاك المعدن

بالصخر في صريرٍ طويلٍ قاسٍ، حتى انبثقت أخيراً خارج فم المضيق الحجري نحو المنحدر الترابي المؤدي إلى الأسفلت الفيدرالي.

في الخلف، خرج سيفيرو مونتالفا مسرعاً من وسط سحب الغبار والدخان، يلهث بغضبٍ وحشيٍّ وهو يرفع بندقيته بسبطانتها الثانية ليصوّب بدقةٍ قاتلةٍ نحو الإطار الخلفي للسيارة الهاربة. لكن في اللحظة ذاتها التي ضغط فيها إصبعه نحو الزناد، انبثق من فوق التل القريب ضجيجٌ هائلٌ ومفاجئٌ لأبواق الهواء الثقيلة، وانعكست فوق الصخور أضواء هالوجين ساطعةً لقافلة شاحنات نقلٍ حكوميةٍ طويلةٍ تتقدمها سيارة دورية طريقٍ فيدراليةٍ بأضوائها الزرقاء والحمراء الدوارة، وقد بدأت نوبتها الصباحية على الطريق السريع ٤٥!

ارتبك رجال مونتالفا تماماً وتجمدوا في أماكنهم أمام ذلك الضوء الفيدرالي الكاشف الذي غمر مشارف المضيق كنهارٍ مفاجئ؛ ففي مكسيك السبعينيات، حتى مالك أراضٍ ومناجم نافذٌ في تشيواوا مثل سيفيرو مونتالفا لا يجرؤ على فتح النار في العراء أمام شهودٍ رسميين من قافلة الطرق الفيدرالية على بُعد ثلاثمئة مترٍ فقط، حيث تتحول الجريمة إلى فضيحةٍ سياسيةٍ لا تشتريها الأموال.

صاح سيفيرو بشتيمةٍ مكتومةٍ وهو يخفض فوهة بندقيته بغلٍّ وحقد، ثم أشار بيده المكسوة بالقفاز الجلدي لرجاله بالانسحاب السريع إلى الشاحنة الخلفية والتواري بين الصخور المظلمة للمنجم القديم قبل أن تلتقط كشافات الدورية الفيدرالية لوحات مركباتهم أو وجوههم.

بعد مئتي مترٍ فقط، انزلقت إطارات «الفورد غالاكسي» السوداء فوق الأسفلت الأملس للطريق الفيدرالي السريع أخيراً، وتوقفت ببطءٍ على الكتف الترابي للطريق. كانت السيارة أشبه بمحاربٍ عاد من الجحيم؛ نوافذها محطمة، وصدامها الفولاذي ملتوٍ ومصبوغٌ بطلاء شاحنة الخصم، وداخلها يعبق برائحة البارود والدم الدافئ وعطر إيزابيل الخفيف.

وضع رافائيل رأسه المرهق على حافة المقود الخشبي، وأرخى أصابعه المتشنجة التي نزفت كثيراً لتشتري لها هذه اللحظة، بينما بدأت إيزابيل تبكي بصوتٍ عالٍ هذه المرة، تضم رأسه المتعب إلى ذراعيها بحنانٍ جارفٍ وتضغط بشال والدتها الصوفي النظيف بكل قوتها على جرح جانبه النازف لتوقف سيل الحياة الهارب منه.

رفع رافائيل عينيه المثقلتين بالألم نحو وجهها المبلل بالدموع، وابتسم ابتسامةً شاحبةً متعبةً تفيض بالسلام والرضا رغم الجراح، وهمس بصوتٍ خفيضٍ كأنما يفي بآخر وعدٍ في حياته:

رافائيل: «أخبرتكِ في تشيواوا... أنكِ ستصلين إلى توريون قبل أن يفتح الفجر عينيه بالكامل.»

مرت شاحنات القافلة الفيدرالية الضخمة بجوارهما مسرعةً نحو الجنوب في هديرٍ مطمئن، دون أن تدرك أي ملحمةٍ من الدم والحب والفداء قد انتهت قبل لحظةٍ واحدةٍ في قلب المضيق الصخري، فيما أشرق خيطٌ ذهبيٌّ رقيقٌ ودافئٌ فوق قمم جبال دورانغو البعيدة، يغسل صحراء الظلال بنور نهارٍ جديد.

الفصل الثاني عشر: بوابة الشمس

أطراف مدينة توريون — شارع هيدالغو | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٠٦:٥٠ صباحاً

«ربما لا يطهرنا الفجر من كل ما ارتكبناه في الليل، لكنه يمنحنا فرصةً أخيرةً لنطرق باباً بالصدق لا بالخداع.»

في السابعة إلا عشر دقائق صباحاً، دخلت «الفورد غالاكسي» السوداء المتهالكة إلى أطراف مدينة توريون، تحت شمسٍ خريفيةٍ نجولةٍ تسللت أشعتها الذهبية من خلف الغيوم المتفرقة لتلمع فوق برك الماء الصافية المتجمعة في الشوارع المرصوفة بالحجر القديم. كانت المدينة تستيقظ ببطءٍ على إيقاع أجراس الكنائس البعيدة ورائحة الخبز الطازج المتصاعدة من الأفران الصباحية، في مشهدٍ يبدو كأنه ينتمي إلى كوكبٍ آخر غير ذلك الجحيم الموحل الذي خرجا منه للتو في صحراء مابيمي.

كانت السيارة السوداء تبدو في ضوء الصباح الساطع كأنها خرجت للتو من حربٍ صغيرةٍ ضارية؛ هيكلها الفولاذي مثقوبٌ بالرصاص، وزجاجها الخلفي مفقودٌ تماماً، ونافذة السائق مهشّمة، وصدامها الأمامي ملتوٍ يحمل

ندوب الارتطام بشاحنة مونتالفا، بينما يرسم غبار مابيمي والطين الجاف خطوطاً رماديةً طويلةً على طلائها الداكن الذي كان يلمع بالأمس تحت أضواء محطة تشيواوا.

طوال الساعة الأخيرة التي قطعاها فوق الأسفلت النظيف للطريق الفيدرالي، خيّم داخل المقصورة صمتٌ جديدٌ يختلف عن صمت الخوف أو الحذر، صمتٌ ثقيلٌ بالامتنان والوقار. لم يتحدث رافائيل طوال الطريق إلا بكلماتٍ قليلةٍ مقتضبةٍ لإرشاد الطريق والسؤال عن اسم الحي والشارع، ولم تعد يده تمتد نحو مفاتيح المذياع ليبحث عن أغاني الحب والغزل، ولا نحو يدها كما فعل في بداية الرحلة.

كان رافائيل يقود بيده اليسرى رغم ألم كتفه، وبأدبٍ خجولٍ ورأسٍ منحنٍ قليلاً، كرجلٍ أدّى دينه كاملاً بدمه وجراحه، ولم يعد يطمع في مكافأةٍ أو وعد، بل ينتظر في صمتٍ متواضعٍ أن يُسمع حكمه الأخير عند العتبة. وكانت إيزابيل تراقب ملامحه الجانبية في ضوء الصباح الذهبي؛ ترى شحوب وجهه، وخصلات شعره الملتصقة بجبينه من العرق، وذلك السكون المهيب الذي حلّ محل مراوغته القديمة.

انعطفت السيارة ببطءٍ نحو حيٍّ هادئٍ تظلله الأشجار العتيقة، وتوقفت بهدوءٍ تامٍّ أمام بوابةٍ حديديةٍ خضراء يعلوها قوسٌ من الحديد المطروق، يطل خلفها بستان رمانٍ صغيرٌ تتدلى ثماره الحمراء المثقلة بقطرات الندى الصباحي، وفي عمق الحديقة ينتصب بيتٌ أبيض متواضعٌ ذو نوافذ خشبيةٍ زرقاء في شارع هيدالغو.

أدار رافائيل المفتاح وأطفأ المحرك الثماني الأسطوانات، فارتجّ الهيكل المعدني ارتجاجةً خفيفةً قبل أن يسود سكونٌ عميقٌ لا يقطعه سوى زقزقة عصافير الصباح بين أغصان الرمان. نزل رافائيل من باب السائق ببطءٍ شديد، متكئاً بيده اليمنى على إطار الباب المعدني، ومخفياً أنين كتفه وخاصرته المتألمة قدر استطاعته، ثم دار حول مقدمة السيارة المهشّمة ليفتح لإيزابيل باب الراكب للمرة الأخيرة.

وقف رافائيل بجوار الباب المفتوح، منحنياً قليلاً بوقارٍ حزين، ينظر إلى الحجارة المبتلة تحت قدميه لا إلى عينيها، كأنه يخشى أن يرى في نظراتها تذكيراً ببدايتهما، أو كأنه يرى نفسه غير جديرٍ بالنظر في وجهها بعد أن أشرقت الشمس. خرج صوته مبحوحاً هادئاً يحمل نبرة الوداع النهائي:

رافائيل: «هذا هو بيت خالتكِ يا إيزابيل. لن يجرؤ سيفيرو على الاقتراب من هنا في وضح النهار، وسأتولى أنا إبلاغ المحطة الفيدرالية أن رجالاً مسلحين أطلقوا النار على سيارتي في مابيمي. أنا آسفٌ على بدايتنا... وأشكركِ لأنكِ أريتني قبل أن أموت كيف يكون القلب النقي.»

سقطت كلماته في هواء الصباح النقي كاعترافٍ أخيرٍ لرجلٍ يستعد للرحيل إلى الأبد بعد أن أوصل الأمانة إلى برّ السلام.

حملت إيزابيل لفافة ثيابها الصغيرة بين يديها، ونزلت من السيارة ببطء، ثم خطت بضع خطواتٍ فوق الرصيف الحجري المبلل وتوقفت عند الباب خطوتين قبل البوابة الحديدية الخضراء. التفتت بنظرةٍ جانبيةٍ نحوه؛ فرأت يده اليمنى ترتجف قليلاً من فرط الإعياء والنزيف وهو يغلق باب الغالاكسي الثقيل خلفها، ورأت قميصه الأبيض الملطخ بالدم الداكن ملفوفاً بشال أمها الصوفي الأبيض الذي مزقته وضمدت به جرحه في أطلال الكيلومتر ١١٤.

كان ذلك الشال الأبيض الملطخ بدمه هو الخيط المرئي الذي يربط بين حياتها القديمة وبين هذا الصباح؛ شاهداً صامتاً على أن هذا الرجل قد مزّق جلده وروحه ليشتري لها حريتها.

فجأةً، انفتح الباب الخشبي للبيت الأبيض من الداخل بصريرٍ مألوف، وخرجت إلى الشرفة سيدةٌ ستينيةٌ طيبة الملامح، يكسو شعرها الفضي شالٌ داكن؛ ما إن وقعت عيناها على ابنة أختها واقفةً سالمةً عند السياج الحديدي، حتى وضعت يديها على فمها وصاحت بفرحةٍ ممزوجةٍ بالبكاء الحار، وهي تسرع عبر ممر بستان الرمان لترتمي في أحضانها.

غير أن إيزابيل لم تندفع نحو السياج بعد؛ بل رفعت يدها بإشارةٍ مطمئنةٍ نحو خالتها الباكية لتخبرها أنها بخير، وظلت واقفةً في مكانها في ضوء الشمس الذهبي تتأمل هذا الرجل الأربعيني المتعب الذي يستعد ليعود أدراجه نحو سيارته المحطمة.

في تلك اللحظة المضيئة، تلاشت من ذهن إيزابيل كل ظلال الشك والمرارة؛ كانت تتأمل الرجل الذي دخل حياتها بالأمس كسارقٍ مغرٍ في المطر، يبحث عن مغامرةٍ عابرةٍ في نزلٍ معزول، وخرج منها اليوم جريحاً مكسور الكبرياء ينقذ حياتها ويضع صدره درعاً في وجه الرصاص.

وأدركت إيزابيل في قرارة قلبها العاطفي الصادق، وبحكمة امرأةٍ عرفت في ليلةٍ واحدةٍ معنى الخوف ومعنى الحب الحقيقي، أن النجاة الحقيقية لم تكن في الوصول إلى توريون وحدها، وأن هذا البيت الأبيض وبستان الرمان سيبقيان ناقصين إن أغلقت البوابة الحديدية في وجه الرجل الذي منحها الحياة.

استدارت إيزابيل ببطءٍ ومهابةٍ هادئة، وعادت ثلاث خطواتٍ ثابتةٍ في الشارع الصباحي المغمور بالضوء حتى وقفت أمام رافائيل تماماً، قريبةً منه بحيث ترى انعكاس الشمس في عينيه الداكنتين الحزينتين. رفعت إيزابيل أصابعها الرقيقة ببطءٍ وحنان، ولمست ذقنه بلطفٍ لترفعه عن النظر إلى الأرض، فتلتقي عيناه المنكسرتان بعينيها الصافيتين اللتين لم يعد فيهما أثرٌ للخوف.

ابتسمت له إيزابيل ابتسامةً دافئةً تفيض بالصفح والصدق، وقالت بصوتٍ هادئٍ نقيٍّ يبدد كل صقيع الليل الماضي:

إيزابيل: «أخبرتني في أول الليل أن الصحراء تفضح كل مسافرٍ يعبرها... وقد فضحتك الصحراء أمامي حين انطفأت المصابيح ورأيتُ من أنت حقاً.»

ارتجفت شفتا رافائيل، ولمعت في عينيه دمعةٌ حارةٌ لم يذرفها طوال معارك الليل؛ نظر إليها بذهولٍ كأنه لا يصدق أن امرأةً بكل هذا النقاء يمكن أن تغفر له خطيئته الأولى، وأجاب بهمسٍ مكسورٍ يقطر تواضعاً وحباً:

رافائيل: «لن أطلب منكِ أن تنسي خديعتي... يكفيني أن أرحل وأنا أعلم أنكِ بأمان.»

هزّت إيزابيل رأسها برقةٍ وحسم، وأبقت أصابعها الدافئة على وجنته المبللة ببرد الصباح، وقالت بنبرةٍ تفتح أمامه أبواب الحياة من جديد:

إيزابيل: «لم أطلب منك أن ترحل يا رافائيل. خالتي تعرف كيف تداوي الجروح القديمة، وهذا البيت يتسع لغرفة ضيوفٍ واحدةٍ... حقيقيةٍ هذه المرة، لا كذبةٍ في المطر. ابقَ حتى يلتئم جرحك، ثم حدثني عن تشيواوا من جديد... دون أكاذيب.»

ارتعشت ابتسامةٌ دافئةٌ لم تكتمل على شفتي رافائيل، وانحنى ببطءٍ ليلمس كفها الباردة بجبينه المرهق، كأنه سجينٌ أمضى عمره في الظلال ويتلقى أخيراً غفراناً لم يحلم به قط.

مشت إيزابيل إلى جواره ممسكةً بيده السليمة برفقٍ لتقوده عبر البوابة الحديدية الخضراء نحو دفء البيت الأبيض وبستان الرمان، حيث كانت خالتها تنتظر عند العتبة بذراعين مفتوحتين. وفي الخارج، بقيت «الفورد غالاكسي» السوداء المهشّمة تقف في ضوء الصباح الذهبي على ناصية شارع هيدالغو، شاهدةً صامتةً على أن أطول الليالي وأكثرها ظلماً قد تنتهي أحياناً عند بوابةٍ مفتوحةٍ للشمس.

الفصل الثالث عشر: ما يختبئ في الظل

مدينة توريون وأطلال صحراء مابيمي | ٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ — الساعة ٠٨:٣٠ صباحاً

«في مدن النوار، لا يُغلق الستار حين تشرق الشمس على العاشقين؛ بل يُرفع ببطءٍ عن مسرحٍ أكبر، حيث تكتشف أن النجاة من الذئاب في الليل لم تكن سوى الفصل الأول قبل أن تستيقظ الأفاعي التي نامت طويلاً في صندوق سيارتك.»

في داخل البيت الأبيض المتواضع في شارع هيدالغو، كان الصباح يبدو كحلمٍ دافئٍ نُسج من رائحة الخبز الطازج وأوراق النعناع المغلية التي أعدّتها الخالة «إيلينا» على عجل. جلست إيزابيل إلى جوار السرير الخشبي في غرفة الضيوف الصغيرة، تراقب خالتها الستينية وهي تضمّد بمهارةٍ وهدوءٍ جرح كتف رافائيل وخاصرته، بعد أن غسلتهما بالماء الدافئ والأعشاب الجبلية المطهّرة.

كان رافائيل مستلقياً على الوسائد البيضاء النظيفة، وقد خلع قميصه الممزق الملطخ بالدم والوحل؛ بدا في ضوء الشمس المتسلل من النافذة الخشبية

الزرقاء أصغر سناً وأقل قسوة، كأن ليلة مابيمي العاصفة قد غسلت عن ملامحه قناع المهرب الماكر وتركت وجه إنسانٍ متعبٍ يبحث أخيراً عن مرفأ.

التقت عيناه بعيني إيزابيل عبر الغرفة الصامتة؛ ابتسمت له إيزابيل بامتنانٍ صافٍ ووضعت كفها الصغيرة فوق يده السليمة المستقرة على الغطاء، همست له بصوتٍ لا تسمعه سوى أذناه: «نم قليلاً يا رافائيل... لقد انتهى الليل، ونحن في أمانٍ الآن.»

أغمض رافائيل عينيه لثوانٍ معدودة، مستسلماً لدفء كفها ولصوت زقزقة العصافير في بستان الرمان خلف النافذة. غير أن عقله الذي تدرّب عشرين عاماً على قراءة الكمائن لم يكن قادراً على النوم طويلاً؛ ففي اللحظة التي هدأ فيها هدير الرصاص في أذنيه، عاد إليه ذلك الصوت المكتوم الذي حاول نسيانه منذ منتصف الليل... صوت الصناديق الخشبية الثقيلة المقفلة في صندوق «الفورد غالاكسي» المركونة في الخارج على ناصية الشارع!

كان رافائيل قد نجا من بنادق سيفيرو مونتالفا، وكسب غفران إيزابيل في ضوء الفجر؛ لكنه لم يخبرها بعد بالحقيقة الأخطر التي لا تزال ترقد تحت غطاء الحديد الأسود على بُعد عشرين خطوةٍ من باب البيت. ففي عالم

التهريب، لا تُشطب الديون بالدموع، ولا يغفر «إل بويتري» لمن يسرق بضاعته ويختفي في الفجر.

في تلك اللحظة ذاتها، وعلى بُعد مئةٍ وخمسين كيلومتراً إلى الشمال، عند أطلال الخان الحجري المهجور في الكيلومتر ١١٤، كانت شمس الصباح القاسية تكشف آثار معركة الفجر فوق الحصى الرطب.

توقفت سيارة جيب عسكرية قديمة تتبعها شاحنتان ثقيلتان أمام السور المنهار للخان، وترجّل منها رجلٌ طويل القامة، نحيلٌ كرمحٍ من الحديد الصدئ، يرتدي قبعةً جلديةً داكنةً وتغطي عينيه نظارةٌ سوداء تخفي نظرةً باردةً لا تعرف الرحمة. كان ذلك «إل بويتري» —النسر— أخطر مهربي السلاح والفضة في شمال المكسيك.

سار «إل بويتري» ببطءٍ بين أنقاض الخان والمضيق الصخري المجاور، عاين بقايا الطلاء الأسود لسيارة رافائيل على الصخور، وأثار الشاحنة المحطمة التي تركها رجال مونتالفا خلفهم، وبقع الدم الداكنة على الحصى. ثم انحنى فجأةً عند مدخل الخان، والتقط بأصابعه المكسوة بالقفاز الأسود تلك الخريطة

الورقية المطوية لإدارة «بيمكس» التي أفلتتها إيزابيل من يدها في لحظة الانكسار!

فتح «إل بويتري» الخريطة ببطءٍ تحت شمس الصحراء، وتتبع بعينيه الخط المرسوم بقلم الرصاص من تشيواوا إلى نزل الرمال، ثم إلى الكيلومتر ١١٤، وصولاً إلى السهم النهائي المشير إلى مدينة «**توريون**»!

انفرجت شفتا «إل بويتري» عن ابتسامةٍ شاحبةٍ مرعبةٍ لا تحمل أثراً للفرح، وطوى الخريطة بعنايةٍ ليضعها في جيب معطفه، ثم التفت إلى رجاله المسلحين الواقفين خلفه وقال بصوتٍ هادئٍ يقطر سماً: «الأحمق لم يكتفِ بأخذ الفتاة لنفسه... بل هرب بصناديق البنادق وسبائك الفضة نحو توريون، وترك خلفه معركةً مع رجال مونتالفا! جهّزوا الشاحنات... سننزل إلى توريون قبل حلول المساء، ولن نترك حجراً فوق حجرٍ حتى ننتزع جلد رافائيل ونستعيد ما في صندوق سيارته.»

ولم يكن «إل بويتري» وحده من يمدّ خيوط الموت نحو الجنوب في ذلك الصباح الخريفي؛ ففي قصرٍ حجريٍّ نفمٍ على مشارف تشيواوا، كان «سيفيرو

مونتالفا» يجلس في مكتبه المظلم يضمّد يده المخدوشة من ارتطام المضيق الصخري، وعيناه تشتعلان بحقدٍ لم يعرفه طوال حياته.

رفع سيفيرو سماعة الهاتف الأسود الثقيل، وطلب رقم العم «ماتيو» في وسط المدينة. وما إن سمع صوت الرجل العجوز المرتجف على الطرف الآخر، حتى هدر سيفيرو بصوتٍ يزلزل الأسلاك: «ابنة أخيك هربت مع سائقٍ مأجورٍ في سيارة فورد سوداء عبر طريق مابيمي نحو الجنوب. أين يمكن أن تختبئ تلك الفتاة في توريون يا ماتيو؟ تكلّم قبل أن أحجز على بيتك وأرضك قبل الظهر!»

ارتعد صوت العم ماتيو على الطرف الآخر من الخط، وتلعثم في خوفٍ قاتلٍ وهو يبوح بالسر الوحيد الذي بقي لإيزابيل في هذا العالم: «خالتها... إيلينا روبليس! تسكن في بيتٍ أبيض صغير ببستان رمانٍ في شارع هيدالغو بأطراف توريون... لا تملك قريباً غيرها في البلاد كلها!»

أغلق سيفيرو السماعة بابتسامةٍ ذئبيةٍ قاسية، وأدار قرص الهاتف مرةً أخرى ليتصل برئيس شرطة الولاية الفاسد في دورانغو وتوريون، ليحيك في دقائق

معدودةٍ تهمة سرقةٍ وقتلٍ ملفقةً ضد «رافائيل»، تجعل من كل دوريةٍ في المدينة صياداً يبحث عن الغالاكسي السوداء!

في توريون، داخل البيت الأبيض الهادئ في شارع هيدالغو، لم يكن رافائيل وإيزابيل يعلمان أن السماء الصافية فوقهما قد تحولت في أقل من ساعةٍ إلى ساحةٍ تتقاطع فيها سكاكين الأعداء من كل صوب.

نهض رافائيل من سريره بهدوءٍ حذرٍ بعد أن غادرت إيزابيل وخالتها الغرفة لإعداد حساء الصباح؛ ارتدى معطفه الصوفي الداكن فوق قميصه النظيف المربوط بالضمادات البيضاء، وتسلل بخطواتٍ صامتةٍ عبر ممر بستان الرمان نحو البوابة الحديدية الخضراء. كان يعلم أن بقاء «الفورد غالاكسي» السوداء المثقوبة بالرصاص على ناصية الشارع في وضح النهار هو دعوةٌ صريحةٌ للشرطة الفيدرالية ولكل عينٍ تبحث عنهما.

خرج رافائيل إلى الرصيف المشمس، واقترب من مؤخرة السيارة المتهالكة، وأخرج من جيبه المفتاح النحاسي الصغير الخاص بصندوق الأمتعة الخلفي. التفت يميناً ويساراً ليتأكد من خلو الشارع من المارة، ثم أدار المفتاح في القفل المعدني ورفع الغطاء الثقيل بحذر.

في جوف الصندوق المعتم، تحت طبقاتٍ من الأقمشة المشمعة، استقرت أربعة صناديق خشبية طويلة تضم بنادقَ أوتوماتيكيةٍ مهربة، وإلى جوارها صندوقٌ حديديٌّ صغيرٌ ثقيلٌ يحمل أختام مناجم الفضة في الشمال—تلك الشحنة التي سرقها رافائيل قبل أيامٍ من مخازن سيفيرو مونتالفا دون أن يعلم أن مونتالفا هو مالكها الحقيقي، والتي كان ينوي بيعها لـ «إل بويتري» في الكيلومتر ١١٤!

مدّ رافائيل يده السليمة ليتفقد أقفال الصندوق الحديدي، لكن أصابعه توقفت فجأةً عند مغلفٍ جلديٍّ داكنٍ ملطخٍ ببقعٍ قديمة، كان محشوراً بعنايةٍ تحت قاعدة الصندوق المعدني؛ مغلفٌ لم يلاحظه حين استولى على الشحنة في الليل.

علاء فاضل الاسدي

٢٠٢٦/١١/٢٦